# الفعل الإرادي

تأليف

د. أبو مدين الشافعي

أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة

الكتاب: الفعل الإرادي

الكاتب: د. أبو مدين الشافعي

الطبعة: ٢٠١٩

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٤٨م

الناشر: وكالة الصحافة العربية ( ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

**E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com**



دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

الشافعي ، د. أبو مدين

الفعل الإرادي / د. أبو مدين الشافعي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٣٠ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٩٦٩ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٣١٦ / ٢٠١٩

# الفعل الإرادي





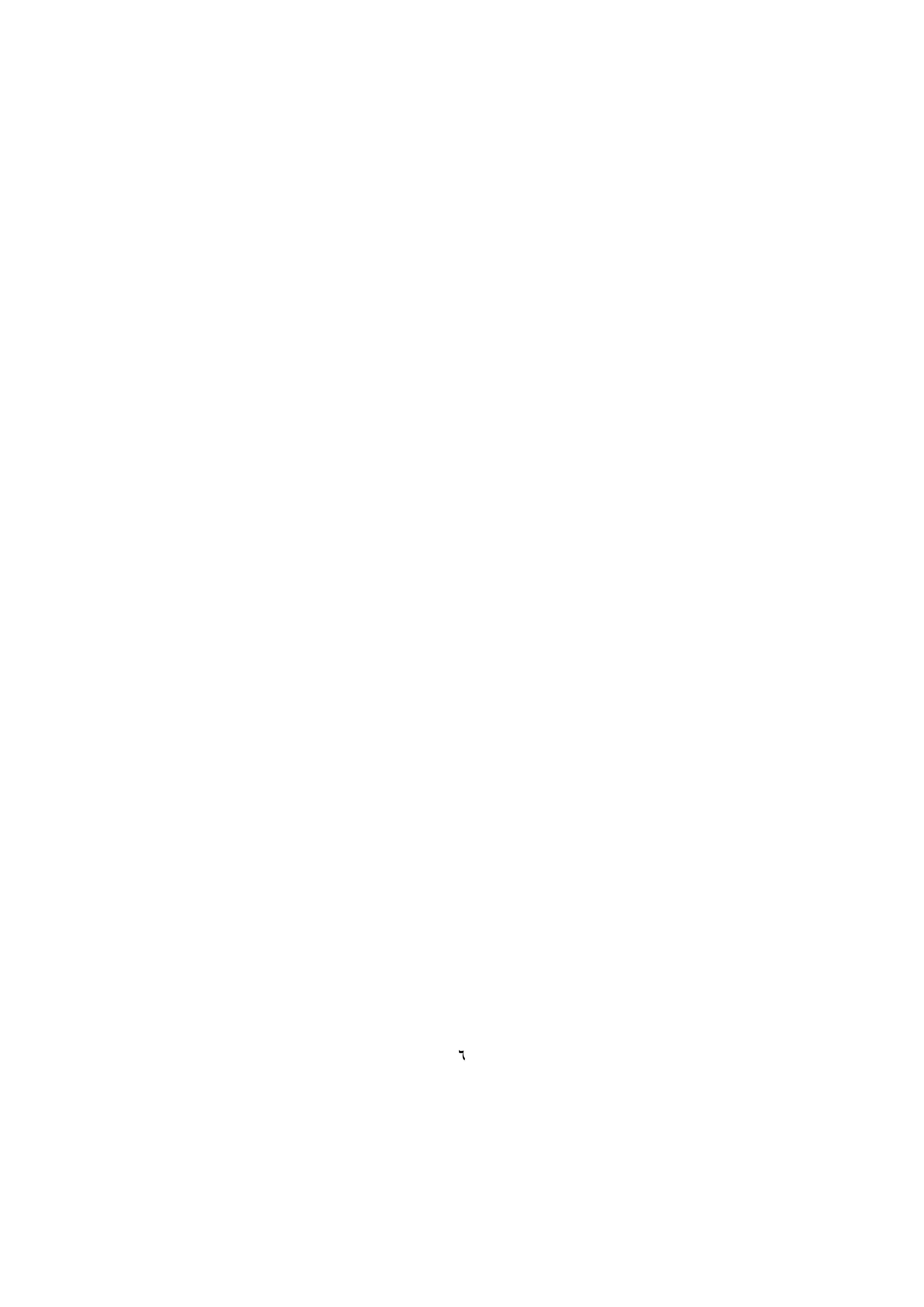
# إهداء

إليك والدي العزيز:

خافضا جناح الذل من الرحمة، أقدم هذا البحث، ملتمسا العفو والغفران...

**أبو مدين الشافعي**

**القاهرة في ١٩٤٨**



# مقدمة

إن الفرق الأساسي الذي يميز الرجل المتحضر عن الرجل البدائي المتأخر يرجع إلى مقدرة الأول على القيام بأفعال إرادية حرة. ولو تأملنا حياة البدائيين والشعوب المتأخرة عن موكب الحضارة لوجدناها حياة خضوع لأوهام وخرافات تتحكم في الأفعال لتوجهها توجيها معينا ولا تسمح لها بالابتكار. للفعل إذن صلة وثيقة بالذهن والعقائد وهو من ميدان علم النفس لا الفسيولوجية وإن كان في مظهره يبدو ظاهرة جسمية.

لقد حاول الفلاسفة ورجال الدين الوصول إلى حقيقة الإرادة واتجهوا في دراستهم اتجاها ميتافيزيقيا، وكانت محاولتهم كلها تأملية لا تستند إلى الملاحظة الخارجية. وتحققت النتيجة المعروفة وفصلت الإرادة عن مظاهرها الخارجية وقالوا بوجود إرادة مستقلة تسير الجسم كما تشاء ونسبت إليها الحرية المطلقة عند بعض الفلاسفة وأرجعت إرادة الإنسان إلى إرادة الله عند البعض الآخر. وقال قوم الإنسان حر مختار وقال آخرون بل هو مجبر مسير . وطال النزاع في هذا الموضوع ولم يؤد إلى نتيجة إذ تمسك كل فريق بحجج قوية لا يجد الخصم سبيلا للقضاء عليها، فلا شك أن المشكلة في حد ذاتها لم تكن واضحة وأن وضعها لم يكن وضعا صحيحا، فالمشكلة زادت وضوحا وأهمية بعد زيادة الإصابات النفسية وكثرة الأمراض العقلية

وتعقد السلوك في المجتمعات المزدحمة التي تدفع الشخص إلى تغيير سرعة أفعاله.

إننا نلاحظ أشخاصا في حالة سوية يسلكون سلوكا طبيعيا يقومون بالأفعال الضرورية التي تضمن لهم التكيف مع البيئة الطبيعية والاجتماعية ولكنهم بعد الإرهاق أو الانفعال الشديد أو استمرار التفكير في موضوع واحد وتكاثر المشاكل يفقد الشخص قدرة التوجيه لأفعاله وتظهر الحركات مبعثرة غير مرتبطة لا تؤدي إلى نتيجة مفيدة. وإذا تتبعنا هذه الاضطرابات وجدناها تتجه اتجاها تلقائيا لا ترمي إلى غاية وقد ترمي إلى غاية مضرة مما جعلنا نقول بفقد الضبط وهو الوظيفة التي توقف بعض الحركات لتضمن نجاح البعض الآخر.

فدراسة الفعل الشاذ سواء كان في صورة الأمراض النفسية أو الأمراض النفسية الاجتماعية مثل الجريمة تلقي لنا ضوءا جديدا على المشكلة، ولا بد من اعتبار الملاحظات الإكلينيكية ومقارنة السلوك السري بالسلوك الشاذ لنصل إلى إدراك الوظائف الضرورية التي يقوم عليها الفعل الإرادي.

لقد حاول البُحاث الوصول إلى الفعل الإرادي بمقارنته بالفعل المنعكس، واعتقد بافلوف الروسي أنه وجد الحل بوقوفه على الفعل المنعكس الشرطي، ولكن كل الدراسات الفسيولوجية التحليلية التركيبية التي تبدأ من عناصر الفعل لتصل إلى الفعل لم تستطع التغلب على مشاكل

منهجية عديدة.

وجاء جلدشتين وحاول الكرة من جديد متبعا طريقا عكسيا للطريق الذي اتبعه القائلون بوجود عناصر جزئية للفعل. الفعل عند جلدشتين كل يكون وحدة تقوم على تكامل جسمي. يتأثر الفعل إذا اختل التوازن الجسمي الداخلي أو التكيف مع الخارج. وضرب لذلك مثلا مهما تعرض به المدرسة فرويد إذ قال إن سلوك بعض الأشخاص البالغين ينقلب إلى سلوك أطفال. ويظهر ذلك في تفكك الأفعال، وأرجعت مدرسة فرويد هذه الظاهرة إلى آثار نفسية وجدت وقت الطفولة وبقيت في اللا شعور إلى هذا الوقت فظهرت هذه الآثار النفسية التي تسمى بالعقدة وأرجعت الشخص إلى السلوك الطفلي.

ويبتعد جلدشتين عن هذا التعليل الروائي الجميل ويقول بتعليل علمي متين: تكون الأفعال سليمة تدل على نضوج وتكامل عندما يكون الجسم سليما أجزاؤه مترابطة متآزرة ولكن بعض الإصابات الجسمية تؤثر في التركيب الكلي للجسم وتفقده توازنه وتكامله فيكون في حالة تشبه حالة جسم الطفل فلا يسع الشخص إلا أن يسلك سلوك الطفل.

نكاد نفهم من هذه النظرية أن التركيب الجسمي هو كل شيء في تكوين الأفعال؛ فأنا لا أوافق على التطرف، ولكن نظرية مثل نظرية جلدشتين تحتم علينا الالتفاف إلى الناحية الجسمية وتدعونا إلى الوقوف على العوامل البيولوجية المساهمة في الفعل الإرادي، وقد يتعرض البعض

قائلا إن هذا القسم البيولوجي بعيد كل البعد عن عملية الفعل الإرادي.

ولكن ظاهرة الاتجاه attitude وظاهرة التوازن الضروريتين لإتمام الفعل الإرادي متصلتان بعملية الكف وعملية التركيز، ولهاتين الوظيفتين صلة مباشرة بالتركيب البيولوجي، وقد ذهبت بعض المدارس النفسية في بحوثها إلى أبعد من العوامل البيولوجية، وحاولوا أن يربطوا السلوك بالعوامل الطبيعية ويتضح ذلك في نظرية الانتحاء Tropisme .

وأفدنا من البحث البيولوجي أننا لا نستطيع عزل الفعل لنحلله، فلا يوجد عنصر للفعل فلابد من الاتجاه إلى دراسة الفعل كما هو، ودراسة الكف البيولوجية تعطينا أيضا فكرة تقسيم السلوك إلى قسمين: قسم عام يقوم على التوازن الكلي للجهاز العصبي وهو الذي سماه جلدشتين أرضية، وقسم خاص يصدر عن نشاط العقد، واعتبرها جلدشتين كشكل بارز وأعطى لها أهمية كبرى للقسم الأول الذي يقوم عليه التوازن ويضمن الشعور بالراحة وذلك لأن اضطرابه قد يكون من أسباب الشعور بالقلق وعدم الارتياح.

ولا يمكننا أن نتكلم عن العوامل النفسية في الفعل الإرادي دون التعرض إلى الحديث عن الوسائل والغايات التي تربط الناحية البيولوجية بالناحية النفسية، وكذلك أثر التنظيم الزمان المكاني الذي يوجه الأفعال ويضمن تكيفها مع الخارج. وقد قام Michotte ، Prime بأبحاث تجريبية دقيقة خاصة بالتصميم الذي يسبق الفعل الإرادي، فأفادنا هذا البحث في

دراسة الانتباه الإرادي الذي يمكن اعتباره المقدمة الضرورية لدراسة الفعل الإرادي. وإن كنت ابتعدت في بحثي عن استعمال نظرية الغرائز وفكرة الملكات النفسية فإنني اتجهت اتجاه لفن Lewin وعوّلت على فكرة المجالات في فهم الدوافع التي تساهم في ظهور الفعل.

وقلت بوجود صلة بين النشاط الإرادي وما سميته بالمجال الحيوي وهو المجال الذي يضمن للشخص توازنا عاما محقق به أغراضه الحيوية. يتوقف المجال الحيوي على مجالات أخرى مثل المجال الجسمي والمجال الاجتماعي والمجال الطبيعي والمجال الذهني؛ فالمجالات الثلاث الأولى يشمل كل منها المجال الذي يسبقه، فالمجال الطبيعي يشمل المجال الاجتماعي ويشمل هذا بدوره المجال الجسمي وأما المجال الذهني فإنه يربط بين هذه المجالات كلها.

وتشرح لنا فكرة المجالات هذه وتأثيرها في الفعل الإرادي كثيرا من أصل الأمراض النفسية وأهمها الكذب المرضي عندما يكون الشخص إذا مجال جسمي ضيق ويحاول أن يقوم بأفعال خارجة عن نطاق هذا المجال فإنه يصاب باضطراب نفسي قد يتعقد وقد يحدث لديه أشد حالة من القلق وتراه يعوض بكثرة الكذب والخيال، لذلك نجد الكثيرين من الأشخاص ضعاف الجسم أو النفس الذين يعيشون في أوساط لا تلائم حالتهم وقدرتهم يقعون في أصعب التعقدات النفسية وينتهي أمرهم إلى المرض الخطير ويفرون إلى الحياة الخيالية ويفسحون مجالهم بالصور والخيال.

تساعدنا فكرة المجالات الحيوية وصلتها بالأفعال الإرادية على إيجاد

الحل الكثير من هذه الأمراض التي بقيت ألغازا إلى يومنا هذا، فالعدد الكبير من المصابين بالأمراض العقلية في العالم لا يمكنه أن يجد الشفاء بين جدران المستشفيات، ويتطلب أغلبهم مجالا خاصا يساعدهم على استرجاع توازنهم العقلي وضبطهم الإرادي.

فمن العبث إذن محاولة علاج المصاب بالشعور بالنقص عن طريق الوعظ أو الحقن، فلا بد من أن نضعه في المجال الذي يرجع له ثقته بنفسه ليقاوم حسب مقدرته الخاصة.

ويظهر أثر المجالات هذه في الحالات السوية إذ يشعر السجين بضيق كما يشعر به القاهري مثلا عندما يجبر على الإقامة في قرية. وتلعب هذه الحالة النفسية دورا كبيرا في امتناع بعض الموظفين عن العمل خارج العواصم. وأعتقد أن التوسع في هذه النقطة وتطبيقها على حالتنا الاجتماعية في الشرق يفيدنا فوائد كبرى ويزيد من نشاطنا ويقلل من الإصابات العقلية المتكاثرة.

نلاحظ أننا عندما تفقد شخصا عزيزا لدينا كان يشغل مكانا مهما في مجالنا الاجتماعي يحدث ذلك الفقد شعورا بالفراغ وشعورا بالألم تعبر عنه ببكاء غزير وانفعال شديد كما لو كان الألم جسميا. ولم تحاول الإنسانية التعرض إلى التخلص من هذه الآلام ولم تحاول إيجاد ما يقضي على آثارها السيئة من اضطراب في شتى مظاهر الفعل الإرادي.

تؤثر الانفعالات تأثيرا كبيرا في شكل الفعل وتتلف وحدته وتكامله

وتجعله يخطئ الهدف. وهذا الاضطراب الملاحظ في الفعل الإرادي يحدثه الانفعال الذي يقضي على التوجيه والتركيز.

نلاحظ على الشخص الذي تضغط عليه عواطفه وانفعالاته أنه يسلك سلوكا غير موجه بل نراه يعيش تحت تأثير العوامل الخارجية الحالية التي توجهه بطريق الصدفة، بخلاف الشخص الهادئ السوي فإنه يسلك سلوكا موجها ولا تؤثر فيه العوامل الخارجية العادية.

لقد أوقفتنا دراسة الفعل والانفعال على حقائق مهمة في ميدان على النفس، فمراجعة نظرية و. جيمز لانجي تؤيد لنا أنه يوجد في حالة الانفعال حالة نفسية نشعر بها وحالة جسمية نعبر عنها. ورأى و. جيمز لانجي أن التعبير الجسمي يسبق الشعور بالحالة النفسية المعبر عنها.

ولا شك أن الوضع الجسمي قد يعطي الشعور بحالة نفسية معينة، ولكن هذه الظاهرة ليست صحيحة دائما عند كل فرد إذ توجد الحالة التعبيرية الجسمية مع الشعور لدى الطفل والحيوانات. وفي بعض الحالات المرضية الخاصة يشعر بعض الأشخاص بتغير جسمي مثل زيادة ضربات القلب ويتبع ذلك شعور بالخوف دون أن يكون هناك ما يدعو إلى الخوف. وقد سبقت الإشارة إلى صلة القلق باضطراب عصبي كما رآه جلدشتين.

المهم هو أن الحالة السوية عند البالغ تختلف عما قاله جيمز فنظرية جيمز قاصرة. والحقيقة أن الدراسة التتبعية توقفنا على التطور نحو النضوج والتكامل. ونرى الشخص يفصل الشعور عن التعبير أي أن الشخص

الكامل السوي يمكنه أن يتألم ويضبط نفسه فلا يظهر التعبير إلا إذا زاد الألم عن الحد الطبيعي فينقلب انفكاكا وتلاشيا للضبط. ويحدث التكامل زيادة في الضبط وتقليلا في الانفعال، وهذه الصلة المتغيرة بين الحالة الجسمية والحالة النفسية تظهر في مواقف كثيرة.

وعندما تكلم مكدوجل عن النزوع والإراديات والحالات الوجدانية فإنه أكد على أن هذه الحالات لا تتصل مباشرة بالجسم والظواهر البيولوجية وكرر كلمتي "غير مباشرة، في كل مناسبة وقال إن الاتصال بين الحالات النفسية والحالات الجسمية يكون دائما بواسطة النشاط النفسي. وقال مكدوجل في كتابه Mind and Body : علينا أن نلاحظ أيضا أن شروط النزوع نفسية، وأن هذه الشروط النفسية في كثير من الأحيان ليس لها في هذه الحال صلات مباشرة بالمخ.

وقد قام معمل علم النفس في صيف سنة **١٩٤٦** بدراسة حول النشاط النفسي وحصلنا على نتائج لها أهميتها، وقد تفطنا إلى طريق خاص في استعمال الديناموجراف فكان يطلب من المجرب عليه أن يضغط أولا بيده مرات وتؤخذ له تقديرات تعطينا رسما بيانيا ولكننا فرضنا أن هذا الرسم لا يصور لنا توزيع المجهود من الناحية النفسية وذلك لدخول عوامل بيولوجية وفسيولوجية خاصة بالعضو. وأجرينا نفس التجربة باستعمال أعضاء أخرى تسمح بتعاون أكبر بين أعضاء الجسم وحصلنا على رسم بياني آخر أعطانا طريقة توزيع النشاط، وعند هذه الخطوة لاحظنا أن بعض الخطوط البيانية تتشابه وتؤكد فكرتنا عن طريقة الشخص في توزيع المجهود.

فبواسطة التكرار وتغيير الأعضاء حاولنا أن نقف على صورة مقدرة للنشاط النفسي الذي يكون باتجاهه الأفعال الإرادية. فهذا النشاط النفسي متصل اتصالا مباشرا بالناحية البيولوجية ومتصل اتصالا مباشرا بالوظائف العامة ومنها الفعل الإرادي، ولذلك كان من الواجب تتبع الوظائف العامة في الحياة اليومية لدراسة النشاط النفسي في تكامله فجمعت حالات مرضية وسوية كثيرة قارنت بينها.

والنتيجة العملية لهذا البحث تكون في محاولة القضاء على أساس اضطراب الانفعال ليعود للنفس تكاملها وتوازنها، وذلك لا يكون إلا إذا عرفنا كيف تؤثر على النشاط النفسي وكيف نحدث التغيير فيه.

وملاحظات على التعب والأمراض العصبية النفسية مثل الصرع أظهرت لنا الاضطراب في أعنف صوره. وبجانب ذلك توجد أمراض اجتماعية مثل الجريمة واضطرابات اللغة وغير ذلك من الشذوذ في السلوك الناتج عن إصابات معقدة ترجع أسبابها إلى عوامل اجتماعية نفسية.

وأعتقد أن علاج بعض الأمراض النفسية يكون على أساس إرجاع التوازن الجسمي النفسي أو بعبارة أخرى تنظيم النشاط النفسي بواسطة الإدراك. ولقد ظهرت اضطرابات بليغة حدثت من أثر انزعاج عقب إدراك منبه شديد ولو لم يكن ذلك المنبه يحمل معنى الخوف كما حصل للأطفال المولودين في أثناء الحرب والذين تعرضوا إلى سماع دوي القنابل.

وخرجت من هذا البحث بمحاولات عملية وصلت بها إلى تغيير

واضح في النشاط بواسطة الإيقاع ووقفت على طريق سهل مضمون لإحداث الهبوط لدى الأطفال المضطربين.

وقد عثرت على تغيرات واضحة في السلوك المرضي وخصوصا في حالات الصرع وخرجت من دراستي للفعل الإرادي بفكرة الوصول إلى القضاء على آثار الصدمات الانفعالية والتغلب على اضطرابات الصرع والكفاح لإرجاع التكامل بالتأثير على النشاط النفسي عن طريق إدراك الإيقاع المؤثر في الحركة.

إن موضوع الفعل الإرادي لموضوع شاسع يشمل أهم نواحي النشاط الإنساني ويتطلب تعاونا متصلا بين المهتمين بعلم النفس.

**أبو مدين الشافعي**

# مدخل

ما برحت مشكلة الإرادة قائمة في الميدانين الفلسفي والعلمي، وقد ظلت هذه المشكلة خطيرة في شتى عصور التفكير الإنساني حتى لقد أدت نتائج بعض فلسفات الإرادة إلى اصطدام عنيف في الطبقات وفي الشعوب، ولم يخل مذهب من أمهات المذاهب الفلسفية من المناقشات في هذه المشكلة.

ولم تكن يسيرة تلك الخطوة التي خطتها الفلسفة للانتقال مشكلة الإرادة من الميدان الديني إلى الميدان الفلسفي – وكان القول حرية الإنسان ومسئوليته عن أفعاله يتطلب مزيدا من الاحتياط والحذر. ونظرة سريعة إلى تاريخ الأديان والمذاهب تقيم لنا الدليل على أهمية موضوع الحرية والإرادة.

وقد اعتبرت الإرادة طوال قرون حقيقة مقدسة لها وجود مجرد، وعدها قوم صلة بين الإنسان والألوهية؛ فالإنسان يريد الخير بإرادة الله، ويريد الشر بإرادته هو، ومن هنا جاءت التفرقة بين نوعين من الأفعال: أفعال إلهية وأفعال إنسانية – وقد ساعد هذا التقسيم الاصطلاحي على التخلص من مشكلة دينية، والمقصود منه هو الحكم على الإرادة وفقاً للحكم على الأفعال.

وقد أدى التقيد بالبحوث الدينية النظرية إلى التمييز بين الفعل والإرادة؛ لأن الأفعال بحسب تقديرها تنسب إلى الإنسان أو تنسب إلى الله. ومن هنا جاء إمكان نسبة الفعل إلى إرادة مستقلة عنه، على أن التمييز بين الخير والشر يقتضي إرادة سابقة تقدر قيم الأفعال.

نجمت فكرة الإرادة إذن من فكرة القيم، وليس من القول بالقيم إلا إن فرضنا وجود إرادة تختار وتميز. وللتخلص من هذا الدور قبل بوجود الإرادة الأبدية الأولى التي توجه الأفعال إلى الخير أو الشر. وخلقت فكرة وجود إرادة مستقلة عن إرادة الإنسان مشكلة الجبرية والحرية، وكان حقا أن تتجه الأفكار إلى القول بالجبرية ما دامت هناك إرادة عليا توجه أفعال الإنسان.

وقد قامت عدة مذاهب فلسفية تناولت مشكلة الحرية بوجه خاص، وتعارض مذهب فيشتى Fichte مع مذهب شلنج كما تعارضت المذاهب الدينية من قبل. وبسط أرنولد جهلن A . Gehlen في كتابه "نظرية حرية الإرادة" كل المحاولات الدراسية حول الحرية والإرادة، وأوضح فكرة مهمة قال بها أعلام في الفلسفة مثل: أسبينوزا، وهيوم، وشوبنهور، وهربرت، ونيتشه، وفندت Wundt، ودريش الذين أنكروا ما يسمى الإرادة. إذ مالوا جميعاً إلى اعتبار الأفعال الإرادية وسائل لإظهار الرغبات والميول، واعتبار الإرادة نشاطاً حراً يصدر عن الميول والحاجات، ويمكننا طوعاً لذلك أن

نعد الإرادة نفسها رد فعل[1].

وقد خطا جهلن خطوتين واسعتين في موضوع الإرادة إذ بين أولاً تعذر الوصول إلى فهمها بالتفكير المجرد، وثانيا أهمية الرجوع إلى الفعل الذي يجعل الشخص يشعر بأنه هو الفاعل والذي يوحد بين الشخص وبين غايته.

ومحال أن نصل إلى فهم الإرادة والحرية على أساس من التفكير، لأن التفكير في الحرية هو محاولة مجردة ليحرر الشخص نفسه، والمهم بالنسبة إلى موضوعنا هو تصريح جهلن Gehlen بأن معنى الحرية يظهر في الفعل، وأن الفعل هو مركز الأبحاث الميتافيزيقية.

وقد مهد L . Lavelle في مقاله "الوجود والفعل" مكانة قوية للفعل باعتباره محددا للوجود، إذ لا يثبت الكائن وجوده إلا بالفعل، وكل مظاهر النشاط النفسي العالية مثل الانتباه والحب يجلوها الفعل. والحرية والإرادة تتطلبان من الشخص كفاحا نفسيا ليميز بين اتجاهات عملية يمكن الفعل أن يتجه إليها.

ولا يدرك الشخص ذاته ومميزها عن اللا ذات إلا بمثل الانتباه والفعل وهما من مقومات الشعور بالأنية. وينبغي أن تكون لكل منهما حرية اتجاه واختيار، ولا يشعر الشخص بكيانه إلا إذا أتجه بفعله وجهة

---

(1) Revue de Métaphysique et de Norale 1936 p. 301 M Guéroult – La philosophie d' Arnold Gehlen

خاصة بين وجهات مختلفة. ولب الشخصية إنما هو الفعل الحر، وكفاح الحي كله مسدد إلى هذه الغاية التي توحد كيانه.

ويتجلى التضارب بين ما ينسبه الشخص إلى نفسه (الأنا) وبين ما ينسبه إلى العوامل الخارجية (اللا أنا) في محاولة الوصول إلى تكامل النشاط النفسي.

ويرى L. Lavelle أن في الحياة فترات يفتر فيها هذا النشاط ليتجمع في حالات الانتباه والحب والفيض الإلهي. وبين M . C . A Strong . أن الإدراك وسيلة تسير لنا تنظيم سلوكنا في البيئة التي نعيش فيها، بيد أنها لا تقدم لنا من حقائق الأشياء الخارجية إلا ما يعوزنا لنحكم اختيار أفعالنا.

ولو تتبعنا تعريف الإرادة في الفلسفة لوجدناه عند Frank في قوله: "والإرادة هي الفعل، وهو القيام بعمل ذي أثر، إن لم يكن في الظاهر فإنه يكون في الباطن" وقال: "إن الإرادة هي قوة شاعرة بوجودها وبالفعل الذي تقوم به في نفسها أو في الأشياء الخارجية. الإرادة صورة النشاط الشخصي الذي يقتضي في شكله الكامل تصور الفعل المزمع إنفاذه، وهي تهدينا إلى الميل الحافز على هذا الفعل وإلى أسباب الترغيب والتنفير وإلى الشعور بقيمة هذه الأسباب، وإلى رسم خطة الفعل على النحو الذي تشير به وإلى سبل الإقدام أو الإحجام. ويذكر "لالند" معنى آخر للإرادة: هي صفة يسمى بها مدى القوى التي يستند إليها ميل يشعر به الشخص،

وتبلغ هذه القوى مبلغ التغلب على مقاومة الميول الكمية الأخرى"

وإن المباحث القديمة للإرادة لترجع كلها إلى هذا التعريف النظري، وقد كان الموضوع الإرادة مكانة ذات شأن في المباحث الأخلاقية. ونرى في دراسة "كانت" للأخلاق تحديدا لمظاهر الإرادة ودرجاتها وصفاتها. ويتصل هذا البحث بالدراسات الفلسفية القديمة التي قام بها الغزالي وابن سينا والقديس توماس الإكويني. وقد عني هؤلاء جميعا بالتمييز بين الفعل والفاعل والعوامل الدافعة إلى الفعل.

وقام ميشوت وبروم بدراسة تجريبية حاولا بها الوصول إلى تحديد دقيق لمراحل الإرادة من حيث هي عمليات نفسية، وأوضحت هذه الدراسة مصاعب التمييز بين الإرادة باعتبارها عمليات نفسية وبين الأفعال الإرادية.

وأحاول في هذا البحث أن أتجه بهذا الموضوع وجهة جديدة، وذلك لأن المباحث البيولوجية والاجتماعية، والدراسات الإكلينيكية للأمراض النفسية شعت ضوءًا جديدًا على موضوع الإرادة والفعل والانتباه، وتبين أن التكامل النفسي الطبيعي يحتم على الباحث منهاجا خاصا ليصل إلى فهم السلوك الإنساني فهما صحيحا. وأهم ما يمتاز به المنهاج التكاملي هو تيسيره الكثير من المشكلات التي كانت تعد ألغازا مستعصية. لقد قالت طائفة من العلماء وعلى رأسهم مين دى بيران Maine de Biran إن الإرادة هي كل شيء في الإنسان. وقال آخرون إنها خرافة لا وجود لها،

وكل ما هنالك هو رغبات يسعى الإنسان إلى تحقيقها بشتى الأفعال. والملاحظ أن هناك صعوبة في فصل الإرادة عن الفعل؛ لأنهما بالطبيعة مجتمعان، وإن لوحظ بينهما انفصال فذلك إنما يكون إلى حين، تمهيدا لنجاح الفعل.

ويميز التقسيم الأولي لمراحل الإرادة بين ما يسبق الإرادة وما يلحق بها؛ فالمراحل السابقة لها تهيئ الشخص للعزم، وهو التفكير في وجوه إمكان الفعل وبين التنفيذ. وقد تعمق آخ وميشوت وپروم في دراسة هذه العملية النفسية التي نسميها الاختيار على أننا إن تأملنا هذه العملية النفسية فضل تأمل رأيناها انعكاس أفعال سابقة قام بها الشخص، فكلما كانت وجوه الإمكان موفورة طال التردد، وصعب العزم. وكلما كانت وجوه الإمكان قليلة كان العكس، فالفعل الذي لا يتم إلا بطريقة واحدة لا يلبث أن ينفذ في الحال. كذلك نرى أن الاختيار الذي سبق الإرادة هو فعل ضمني في الذهن.

وقد بينت دراسات عملية للاختيار عند الطفل اقتران الفعل العضلي بالفعل الذهني حين الاختيار، وكان الفرق كبيراً بين الطفل والبالغ في هذه الظاهرة، وكلما توافر التكامل النفسي قلت الحركة الخارجية وزاد التفكير، وبعبارة أخرى يعوض الفعل الحركى بفعل ذهني، وكلمة تفكير بالفرنسية Reflėchir – كما لاحظ برجسون – تدل على أن عملية الاختيار الفكرى هي عملية ذهنية يستعاض بها عن أعمال الحركة العضلية؛ فالاختيار السابق العزم فعل، ولكي ينقطع الشخص الاختيار والتفكير لا

بد له من أن يقف التيارات السريعة التي تدفعه للقيام بحركة ما حتى يتجه إلى فعل آخر يفتقر إلى قوة إرادة، وكذلك يكون الفعل الداخلي الذي نسميه اختيارا فعلا إراديا لأنه توجيه.

يمكن عد الانتباه الإرادي أهم ركن للفعل الإرادي، إذن فدراسة الانتباه هي المقدمة الضرورية لدراسة هذا الفعل. وعملية العزم تبدأ في مرحلة الانتباه أو الاختيار وتنتهي بالتنفيذ. وليمكن الوقوف على هذه المرحلة من الفعل الإرادي لا بد من إلقاء نظرة على أسسه البيولوجية، لنوضح الفروق بين أنواع الفعل بوجه عام، ولتصل إلى ميزات الفعل الإرادي، وما هو دور الكف والتركيز في عملية التنفيذ.

ولا بد من بحث صلة الفعل الإرادي بالعوامل النفسية البحتة قبل التطور الذهني والانفعال والضبط، على أن يكون هذا البحث على نمط على بعد أن طال النقاش حوله في الميدان الفلسفي. وقد بدأ البحث الفلسفي التقديم بمحاولات التمييز بين الرغبة والإرادة، واتجه كندياك Condillac وتوماس براون Thomas Brown إلى اعتبار الرغبة أساساً للإرادة. ولكن الرغبة حالة طارئة لأعراض جسمانية، وقد تؤثر فيها بعض العوامل الاجتماعية، ولكنها منفصلة عن الشخصية المتكاملة وذلك لأن الدوافع مرتبطة بحاجات تزول بزوالها. ولكن الأسس النفسية للإرادة أبعد من ذلك مدى.

وأشار ليبنتز Leibniz ومين دى پران M, de Biran إلى النشاط

الدائب الذي يغذي الإرادة. وأثبت هذان المفكران أن للنفس ميلا طبيعيا إلى الفعل. وكان هذا الاتجاه نفسه عند Lavelle حين حاول أن يوحد بين الشخص والفعل، على خلاف ما ذهب إليه ديكارت من رجع الشعور بكيان القوات إلى الفكر، لأن الفعل يصان بالمكان وبالزمان.

ولم يكن ب . جانيه مخطئا حين نسب إلى النشاط الحركي وإلى العمل العضلي قدراً من المجهود أكبر مما يبذله النشاط الذهني، وذلك لأن الأفعال الفكرية أفسح حرية من الأفعال الحركية الخارجية.

والمشكلة الفلسفية الخالدة التي تتناول حرية الإنسان تعالج دائماً حرية الأفعال الحركية الجسمية، وقد حدد ليبنتز هذه الحرية بقوله: تقتضي الحرية ثلاثة عوامل أولا: الذكاء، أو ملكة الاختيار. ثانيا: التلقائية. ثالثاً: احتمال انتهاز الفرصة أو إضاعتها (Contingence). وقد أول الفلاسفة الحرية تأويلات مختلفة بحسب فهمهم لهذا الاحتمال، ومن أنكروا الاحتمال قالوا بالحتمية déterminisme.

وقد أثبت هاملين Hamelin وحدة بين الحرية والشعور والفعل، وأحسن تعريف للحرية وضعه برجسون إذ وصفها بالعلاقة بين "الأنا" المجسم بالنسبة إلينا وبين فعل محدد لشعورنا. والفعل قبل تنفيذه أو بعده هو الذي يمكننا من الشعور بالزمان والديمومة قبل التنفيذ لأنها تقتضي فترة من الزمان في الاختيار، وفترة أخرى تتأهب فيها للعمل أو نقاوم فيها حتى لا نقوم بالفعل.

وقد أيد برجسون فكرة هاملان، إذ وحد بين الفعل والشعور والحرية

لأنه لا يعتبر الفعل إراديا إلا إن كان مصدره الشخصية الكاملة، وأقام تكامل الشخصية على وحدة "الأنا" المكون من حالات شعورية متعددة مختلفة يصدر من داخلها شعور بالديمومة.

ويمكن التحقق من صحة هذه الفكرة بالرجوع إلى حالات اضطراب الفعل الإرادي، وقد تتبع ريبو أمراض الإرادة بالرجوع إلى دراسة اضطراب الفعل الإرادي، وربط بين هذا الاضطراب وبين اضطراب الدوافع وقال بوجود شيء أسماه فقدان الإرادة Aboulie في حالات التجلي الصوفي، وفيما يصدر من النوام من الأفعال.

وهذا الإفراط في الربط بين الإرادة و الدوافع جعل ريبو يقول بالحتمية في حالات الإرادة السوية. وقد أهمل ريبو أثر المجتمع في الأفعال الإرادية مع أن أغلب حالات الاضطراب تأتي من الاضطرابات الاجتماعية، وربما أتت من الاضطرابات الجسمية والنفسية.

أما مين دى بيران Maine de Biran فقد جعل الإرادة أساس المعرفة، ولما درس اضطراب الإرادة رده كله إلى الناحية النفسية.

وأوسع خطوة في مكنتنا أن نخطوها بدراستنا الفعل الإرادي، دراسة تكاملية، هي أن تربط المباحث المتعلقة بالإرادة بمختلف نواحي الحياة الجسمية والنفسية والاجتماعية، وأن نتناول على نمط على أساس الإرادة الممثل في الفعل الإرادي بحيث نبعد عن فكرة الإرادة باعتبارها حقيقة مستقلة، فالأمراض النفسية التي تصيب الإرادة تجعلنا نؤمن بتداخل

العوامل الجسمية والنفسية والاجتماعية لإظهار الفعل الإرادي. وإن كان المنهاج الفلسفي عاجزاً عن الوصول بنا إلى الحقائق، فإن ملاحظة الواقع الحي تشرح لنا الحقائق الفلسفية، وتطوع لنا ما يستعصي من المشكلات الميتافيزيقية.

على هذا النحو نعالج مشكلة موضوع علم النفس.

لقد تساءل الناس كثيراً عن حقيقة النفس، وألفت الكتب في البحث عن كيانها وصفاتها المميزة لها عن الجسم، وقد تقدمت الإشارة إلى كلمة "برجسون" التي يوحد فيها بين "الأنا" والشعور والحرية والفعل، وإن كنا لا نعرف النفس، فإننا قادرون على تتبع النشاط النفسي من مراحله الأولى التي يكون فيها متصلا بالجسم إلى الحالات النفسية المجردة التي تظهر فيها حالات ذهنية، وفي كل مرحلة تتجلى لنا صلة الفعل بالإرادة على درجات مختلفة، لأننا نلاحظ في كل مرحلة وجود أفعال موجهة. وتطور الكائن الحي يرمي دائماً إلى ضمان نجاح الفعل، وذلك لا يكون إلا بانتقال الحركة من الآلية إلى الفعل الإرادي الموجه.

# موضوع البحث

اصطلح العلماء على تقسيم الانتباه إلى نوعين: إرادي وتلقائي، ولعل أصل التفرقة بين هذين النوعين راجع إلى التفرقة بين نوعين من الفعل لأن الانتباه هو توجيه الفعل أو فعل تهيئي: فعل منعكس يوصف بالسلبي، وفعل إرادى يوصف بالفعال. فهل هناك حقا مسوغ لهذه التفرقة، وهل يعد النوع الأول فعلا؟ لكي نجيب عن هذه الأسئلة لا بد أن نعرف ما هو الفعل وما صلته بالحركة، وهل يمكن أن تربط بين الفعل المنعكس والفعل الإرادي. وهل ثمة مراحل بين نوعين يتسنى لنا بها أن نستجلي أساس الفعل الإرادي؟

لوحظ أن الفعل الإرادي يتخذ أداته من الأعصاب والعضلات نفسها التي يتخذ الفعل المنعكس أداته منها؛ فالفرق إذن لا يرجع إلى أعضاء الجسم كل منها على حدة، وإن كان هناك فرق جسمي فهو راجع إلى الاختلاف الكلي بين جسم وجسم، ولهذا نضطر إلى أن نلقي نظرة على تطور الجسم في سلسلة الحيوانات العامة وأثر ذلك التطور في الفعل. ومن ثم يتبين لنا أن العناصر لا أثر لها، وإنما الخلاف راجع إلى أسلوب الفعل، ولكي نفهم أي نوع من أنواع الفعل ينبغي لنا مراعاة البيئة التي يعيش فيها الحيوان، لأن الفعل هو محاولة التكيف بالبيئة، سواء أكانت جامدة أم حية. فما هي آثار البيئة الخارجية في الفعل؟ هل يمكن أن نقول إن البيئة الخارجية تؤثر في عناصر الفعل أو هي تؤثر في شكله؟

لا شك أن الحياة الاجتماعية مقوم من مقومات البيئة ولها في الفعل كبير أثر؛ فالعوامل الاجتماعية تحدث الفعل المنعكس كما تحدث الفعل الإرادي. وللمحاكاة يد في تكوين الفعل، وكذلك العقائد الدينية تؤدي إلى توحيد الأفعال. وهنا يصعب علينا بعض الصعوبة أن نفرق بين الفعل المنعكس والفعل الإرادي؛ فبأي نوع من هذين النوعين نلحق الأفعال الدينية التي هي صادرة عن رغبة الشخص، ولكنها مع ذلك ثابتة ومشتركة بين كثيرين من الأشخاص، وليس فيها شيء من اختيار الفرد وحريته؟

لا تؤثر العوامل الاجتماعية إلا في شكل الفعل؛ فلم يبق أمامنا إلا العوامل النفسية التي نتلمس بوساطتها خصائص الفعل الإرادي. في هذه العوامل وفي هذه الرغبات والميول التي نربطها بالعوامل الجسمية نجد بعض الأفعال الإرادية خاضعة لعوامل نفسية جسمية معا تؤثر في شكل الفعل. والفعل الإرادي القائم على أسس نفسية جسمية من رغبات وميول قد تتشابه أنواعه بين شخص وشخص، أو في الشخص نفسه بين وقت ووقت.

وإن كلا من الإدراك والانتباه والفعل الإرادي عامل نفسي طبيعي أو نفسي اجتماعي وهي جميعا تؤثر في شكل الفعل. وهناك التصور والعزم وهما نفسيان مصدرهما ما نسميه الذهن، وكلاهما يؤثر في شكل الفعل، كما يؤثر في انطلاقه وكفه؛ وتلك هي الصفة الرئيسية للفعل الإرادي بجانب الشكل.

# الباب الأول

# أثر الجسم في الفعل الإرادي

# الفصل الأول

# الأسس البيولوجية للفعل الإرادي

يستخدم الفعل الإرادي تلك العضلات نفسها التي يستخدمها الفعل المنعكس وتتفاوت الأفعال في الدقة والتكامل بتفاوت ضبط الحاسة الحركية Kinaesthetic للحركات الإرادية. وتربط الحاسة الحركية بين مختلف الإجابات الانعكاسية التي تصدر من الجسم وتجعلها تتكامل وتتآزر. ويلاحظ ذلك حين يُهدد شخص بحركة موجهة نحو عينيه إذ تراه يبعد رأسه من فوره، ويرفع إحدى يديه ليحمي وجهه. وتظهر في الوقت نفسه حركة انثناء الركبتين، ويميل الجسم كله إلى الخلف إن كانت حركة الرأس لا تكفي للتخلص من الخطر.

ويحدث فقدان حاسة الحركة اختلالا كما نلاحظ ذلك في الفعل المنعكس ليكون شديدا أو بطيئا جدا، ولا تؤثر الحاسة الحركية في شكل الفعل المنعكس وحده، ولكنها تؤثر أيضا في انطلاقه، ويظهر المنعكس سريعا بعد التنبيه أو بطيئا يصطحب بحركات جسمية أخرى.

ولا يجوز لنا أن نسمي تآزر الحركات المصاحبة لاستجابة منبه معين تكاملا بالمعنى الصحيح. ولا يقوم هذا التآزر على توجيه ملائم بل هو شبيه بإشعاع النشاط الملاحظ في الضفدعة الشوكية التي استؤصل مخها عندما يشتد المنبه في نقطة معينة من الجسم، فإن الحركة تعم شيئا فشيئا

مختلف أطراف الجسم، وتبدو هذه الحركة مترابطة.

ولوحظ أن تنبيه منطقة معينة في مخ الكلب أو الأرنب محدث استجابات في شتى أطراف الجسم، وأن المناطق المخية متداخلة غير مستقلة تمام الاستقلال كما فهمه بروكا (Broen ) ويظهر ذلك في الفرق الكبير بين الحركة الناشئة عن تنبيه العصب المختص وبين الحركة الناشئة عن تنبيه المركز؛ ففي حالة التداخل تكون الحركة أكثر تكاملا من الحركة الجزئية الآلية الصادرة عن تنبيه العصب المنعزل. ولكن التنبيه الصناعي للمخ يكون هو الآخر سريع الزوال، ولا تكون له إلا نتيجة نسبية مقيدة بحالة المخ السابقة للتنبيه. (٢)

وترجح هذه الملاحظة فكرة الاستعداد الأولى القائم منذ الولادة في الجسم القابل لانتشار الحركات فيه بتأثير منبه قوي. والفرق بين الفعل المنعكس والفعل الإرادي هو الفرق بين الفعلين من حيث صلتهما بالأفعال الجسمية الأخرى. لأن التكامل الجسمي الذي يقوم عليه الفعل الإرادي هو ظهور حركات معينة مع كف أنواع أخرى من الحركات التي تعرقل سير الحركة الرئيسية، ويقوم الفعل على حركتي القبض والبسط وهما نتيجة تنبيه واحد يلحق بعض مناطق المخ. ويصرح ستارلنج بأن تنبيه مناطق الحركة تنبيها صناعيا يحدث حركات تشبه أتم شبه وأدقه تلك الحركات المتآزرة التي نراها في حالة النشاط السوي الإرادي أو التلقائي

---

(٢) Nouveau Craité de psychologie TI p. 272. ch.4

عند الحيوان [٣]

ويبدو لنا من هذا أن الفرق الأساسي بين الفعل المنعكس والفعل الإرادي راجع إلى الخلاف في درجة التكامل؛ فالفعل المنعكس أقرب إلى الانعزال من الفعل الإرادي، والآخر أقرب إلى التكامل من الأول. وإن كان هناك تقارب فمرده إلى اتحادهما في الأساس التشريحي وهو المخ.

نشاهد في الحيوانات الدنيا التي ليس في مخها الانتصاف الكروي أن الحركة متصلة اتصالا وثيقا بالحس محصورة في المنطقة المنبهة، وينقلب الإحساس إلى حركة بطريقة تكاد تكون آلية، لأن الاستجابة تبقى متشابهة على خلاف أنواع التنبيه، ولكننا لا نستطيع أن نقول بالآلية لوجود التكيف والتعود اللذين هما من خواص الأحياء. وأول ما يظهر بظهور النصفين الكرويين في المخ هو تنوع الأفعال المنعكسة في الشكل والشدة، فترتبط في الحركات، وتقوم على الكف وسهولة التحرك، وفيها نوع من التنظيم والتكيف.

والمخ في الضفادع والطيور ليس به مناطق مختصة بالحركة، فالإشراف على الحركة يظل من اختصاص الدماغ المتوسط (الجسم المخطط)، ولذلك نرى الضفدعة الشوكية تستجيب للمنبهات كسائر الضفادع الكاملة السليمة. ونلاحظ بعد قطع المخ نقصا في الاندفاع المكيف والتلقائية. وقد

---

(٣) Starling's Principles of Human Physiologie p. 269 ed. 7

أثبت ذلك فلورنس (Flourens) بعد تجارب أجراها على الطيور.

ومنطقة المخ الحركية لدى الكلاب متصلة بالجزء الحركي من النخاع الشوكي، ولعل هذا هو السبب في قدرة الكلاب على ابتكار حركات جديدة وتغيير السلوك بطريقة سهلة. وتبدو الكلاب أقدر من سواها على التكيف في مختلف الأحوال. حين تفصل القشرة المخية عن النخاع الشوكي تظهر عملية التصلب واضحة، ويزول الكف ويصبح الحيوان أشد عرضة للهياج.

عند الإنسان نوع من التخصص المخي، وفيه منطقة معينة تشرف على الحركة، ولكن بعضا من العلماء، بينهم منك (Munk ) وباستيان ( Bastian ) يذهبون إلى فكرة الاتصال الوثيق بين الإحساس والحركة ويرون أن منطقة الحركة نهاية أعصاب الإحساس. ويؤكد باستيان (Bastian ) أهمية التأثيرات الصاعدة ( Afferent impressions ) في الأفعال الإرادية. وقد سميت مناطق الحركة في بعض الأحيان مناطق حسية حركية معا. ويرد باستيان على القول بأن أي تلف أصاب منطقة الحركة وحدها لم يؤثر قط في الإحساس، كما أن التلف الذي يصيب الطرق الحسية لا يكفي لإحداث الشلل الحركى.

والراجح فسيولوجيا أن الأفعال الإرادية تقوم على اتصال الطرق الحسية بالطرق الحركية. ويصارح ستارلنج بأن القول بتمثيل المنطقة الرلندية لمركز الحركات الإرادية لا يعني أن أنواع النشاط الحركي تنشأ

نشوءا جديدا من الخلايا العصبية في مادتها السنجابية. [٤]

والمهم أن الفعل الإرادي لا يظهر إلا إذا كان هناك اتصال بين الطرق الحسية والطرق الحركية، أي لا بد أن يكون القوس تاما، وحين تظهر حركة جديدة ويتكون طريق حسي حركي، يتسنى لأي تنبيه أن يحدث فعلا منعكسا؛ ولذلك سميت القوس بالقوس الانعكاسية ( are reflexe)، واتخذت أساساً للفعل الإرادي وفقا للتطور التكويني في النوع وفي الفرد.

حاول كل الذين سبقوا جلدشتين أن يصلوا إلى فهم الأفعال الإرادية بالتدرج من البسيط إلى المعقد، وبنوا دراسة الفعل الإرادي على دراسة الفعل المنعكس. واعتقد بافلوف Pavlov أنه حل المشكلة بنظريته في الفعلي المنعكس الشرطى، إذ رد الأفعال الإرادية إلى الأفعال الانعكاسية الشرطية وأجرى في هذا الشأن تجارب عملية، إلا أن جلدشتين أثبت بطلان الأساس في بعض التجارب المعملية النفسية لأن هذه التجارب عمادها عنصر مناف لحقيقة مهمة تقوم عليها الحياة النفسية.

إن التجربة المعملية، وإن توافرت لها الدقة، فإنها عملية صناعية بعيدة عن أساس الظواهر النفسية، وهو التكامل الجسمي النفسي الاجتماعي. وقد لاحظ بافلوف بنفسه هذه الحقيقة لما أقام تجربة الفعل

---

(٤) Lewin principl s f topological Psychologie

المنعكس الشرطي في باريس، وأدهشه أن الفعل المنعكس لم يحدث، على حين أنه استوفى مختلف الشرائط العملية التي حسب أنها كافية لإحداثه. ودفعته الدهشة إلى أن يدعو مساعده الذي كان بعيدا عن مجال التجربة ليسأله ماذا كان من نقص، فما أسرع أن ظهر الفعل المنعكس، واتضح أن وجود المساعد أثناء التجربة كان أحد الشروط المهمة لإحداث الفعل المنعكس الشرطي.

وقد بين لفن أهمية عامل المجال المحيط وأثره في السلوك العام، نلاحظ السلوك المنزلي للطفل وتغيره بتأثير وجود أشخاص بأعيانهم كالأم والأب؛ لهذا يتعذر علينا أن نعزل أي فعل تمام العزل. ولكي نفهم الأفعال البسيطة لا بد أن نفهم الأفعال المعقدة أولا أي الأفعال الكاملة. ولإدراك الأسس الرئيسية للفعل الإرادي وهذا الفعل الطبيعي التام. ويقترح جلدشتين أن نتدرج في دراستنا من الأفعال العالية الحرة إلى الأفعال المنعكسة.

# الفصل الثاني

# الكف

إن الذين عالجوا أن يصلوا بطريق الفعل المنعكس إلى الفعل الإرادي وقفوا حائرين أمام ظاهرة الكف، وهي أهم شرط يقوم عليه الفعل الإرادي. وقد ظهرت نظريات كثيرة تعالج أن تشرح عملية الكف التي توجه الحركة وجهة معينة.

وهذه النظرية التي أسست على دراسة المنعكس كانت ناقصة، فإن اقتران المنبه والاستجابة في المنعكس لا يكون على جهة الدوام، وذلك رأي جلدشتين إذ لاحظ أن عوامل كثيرة تؤثر في كيفية الاستجابة مثل وضع العضو الذي يسلط عليه المنبه. ولتركيب العضو دخل مهم في كيفية استقبال المنبه، وهذه الكيفية تؤثر هي الأخرى في شكل الاستجابة. وتختلف الاستجابة باختلاف نوع المنبه وأثره الضار أو النافع للجسم. وأهم من هذا كله أن المنبه الواحد قد يحدث نوعين متقابلين من الاستجابة مثل نقص خفقات القلب أو زيادتها.

ونظرية التآزر ونظرية التعارض تشرحان الظواهر التي اعتقدوا أنها بسيطة، وقد اعترض جلدشتين على هاتين النظريتين لأن فكرة التعارض ليس في مكنتها أن تشرح شيئا، إذ يستحيل تحديد المنبه الذي أثر في

الكف وتميزه عن المنبه الذي أثر في التحريك.

وأثبتت التجارب أن منبهاً واحداً هو الذي يؤثر في الغالب لشدته أو لشدة حاجة الجسم إليه، ومن جهة أخرى ليس بكاف أن يقال بوجود مراكز خاصة للتنظيم والتآزر، لأنه حقاً علينا مع ذلك أن نفهم لم تنظم هذه المراكز بعض الاستجابات دون بعض، ومتى تنظمها. قيل بأن في الجسم تنظيما ذاتية، والقدرة على هذا التنظيم لا تستند إلى أساس تشريحي وإنما ترجع إلى حالة الجسم.

على أن نظريات النشاط الجسمي في تنظيم الحركات والأفعال ليست مغنية كل الغناء الشرح الحالات النفسية جميعاً. وأن وجهات النظر هذه لا تظل عاجزة عن أن تشرح نواحي الحياة العادية شرحاً شاملا. ومرد هذا العجز إلى المنهاج الذي يتخذ من الأفعال البسيطة بدءًا لعمله، على حين أنها ناقصة مرهونة الصلة بالأفعال العادية. وإن مظاهر الحياة العادية لأوسع مدى، وإن وجوه إمكان الفعل الأكثر عدداً من أن ندركها بالتخمين للانتقال بها من الجزء إلى الكل.

ودراسة الكف تؤيد اتجاه جلدشتين بما تقدمه لنا من مشكلات لا يمكن حلها إلا إذا تمثلنا في أفكارنا أكمل الأعمال من ناحية وتمثلنا الاتجاه (attitude) من ناحية أخرى. ودراسة الكف تبين لنا مهمة العقد العصبية في التركيب التشريحي للجهاز العصبي. فليست هذه العقد محطات للتيار العصبي فحسب، بل هي مع ذلك حدود تراقب شدة التيار؛ فهي تحد من

قوة المنبه وتعوق انتشاره في الجهاز العصبي كله حتى في حالة تنبه متوسط. وتقوم العقد بمهمتها تلك، حين يجنح التوازن الكلي إلى اضطراب مبعثه التقارب في شدة التيار بين منطقة معينة للجهاز العصبي وسائر مناطقه الأخرى. فإن العقد تبذل ما عندها من فيض نشاط لترد الجهاز كله إلى حالة معينة من التنبه المتوسط.

ولكي يتحقق ذلك يقوم الجسم بنوع خاص من الفعل يختلف في الشدة والاتجاه باختلاف مطالب الجسد. بباعث من الحاجة، يختار الجسم ما يلائمه من بيئته التي هي أيضاً من خلق الحاجة. فإن كل ما يستغني عنه الجسم يظل في خفاء لا يثير أي ميل. ويمكن وفقاً لذلك تقسيم وظيفة الجهاز العصبي قسمين: الأول حاجة دائمة إلى التغذية المتوسط موصولة بنشاط العقد، والآخر نشاط المناطق المحددة بالعقد. ويسمي جلدشتين القسم الأول أرضية، والقسم الآخر شكلا.

فالأرضية تحقق توازن الجسم القائم على النشاط لا على السكون، ولذلك لا يجوز القول بأن الجسم قد يكون في حالة سلبية في أي وقت كان مهما يكن الجسم ضعيفا. وترابط أجزاء الجهاز العصبي بواسطة العقد عون على دقة الحركات.

ويميل جلدشتين إلى إنكار فكرة التخصص البحثي في المخ ويرى أن التجارب التي أسلمت إلى هذه الفكرة لم تكن لتؤتي النتيجة التي أتيناها إياها.

وفكرة الأرضية والشكل التي قال بها جلدشتين فيما يختص بوظيفة الجهاز العصبي تشع ضوءًا جديداً على مشكلة التخصص في ذلك الجهاز. وقال جلدشتين إن تلف جزء من الجهاز العصبي قد يحدث اضطراباً في وظيفته العامة أي في الأرضية. ويرى أن الحركة من اختصاص المخ بأكمله وحين يحدث نقص في المخ يتبعه اضطراب في وظيفة من وظائف المخ كما هو الشأن مع الحركة.

تتحكم "الأرضية" أو الوظيفة العامة للجهاز العصبي في السلوك، وقدرة الجسم على حل المشكلات الخارجية تحدث الحركة الموجهة المضبوطة، والعجز والإخفاق حدثان حالة نفسية نسميها القلق. وهو خشية المجهول غير المحدود. وليست حالة القلق إلا التردد العام وتوقف النشاط لفقدان اتجاه معين للحركة، فالكف عند جلدشتين راجع إلى العمليات الجسمية وحدها. والبيئة عنده قليلة الشأن لأنها فيما يرى من صنع الجسم الذي يخلق مجاله الحيوي وفق حاجاته وعناصر تلبيتها.

غير أن حالة القلق الناشئة من اضطراب توازن الجهاز العصبي تثبت أن هناك تضارباً بين شيئين مختلفين لا يمكن أن توجد بينهما بالسهولة التي يراها جلدشتين. ولا يمكن إنكار تآزر الجسم وتكامل أجزائه للتغلب على الموقف الخارجي.

وما تطور السلوك الحيواني العام إلا نتيجة لمحاولة اكتساب القدرة على الكف، ويدل ميل الحيوان إلى الدقة في حركته على الكفاح الدافع

للجسم إلى خلق وسائل للتغلب والاستزادة تجنبا لمزالق الإخفاق.

ولكن الكف لا يتم بتحريك العصب العضلة ووقف أخرى، وإنما المهم هو نجاح العضلة في التفادي من الخطر الخارجي المهدد للجسم أو بلوغ الحاجة فلا بد إذن أن يكون للبيئة دخل كبير في التأثير البيولوجي. ويظهر ذلك أيضا فيما يسميه جلدشتين بالشروط الأولية للمنعكس.

# الفصل الثالث

# التركيز

لكي نكون على بينة من ظاهرة الكف ينبغي أن نلقي نظرة على ما يسمى بالتركيز. وقد أظهر البحث الإكلينيكي أن إتلاف أحد جزئي المنطقة البصرية (Calcarine) إتلافا غير تام يحدث في البصر ضعفا واضطرابا، على خلاف إتلاف أحد الجزأين بأكمله فإنه يعيد للبصر حالته الأصلية، وتأويل هذه الظاهرة عند جلد شتين يرجع إلى القول بثبات النشاط لأن الجزء الذي أتلف بعضه يستنفد كمية من النشاط دون أن يقوم بوظيفته بخلاف الائتلاف التام فإنه يسمح للنشاط أن يتركز في الجزء الآخر من المنطقة البصرية.

يقوم الجهاز العصبي في كل أطواره بتوزيع النشاط توزيعا دقيقا يؤدي إلى تركيزه في منطقة المخ بحيث يتولى تنسيق الحركة وإحكام إدارتها. فلا يمكن أن تكون موجهة إلا إذا كان هناك إشراف دقيق على الأعصاب الموردة والأعصاب المصدرة. ويظهر ذلك جليا في مرض Tabes Dorsalis وبخاصة في الحالة التي تصيب الأعصاب المحيطية الحسية؛ فنلاحظ أن العضلات على سلامتها لا تقوم بواجبها في هذه الحالة وليس مرد ذلك إلى نقص القوى ولكنه يرجع إلى ضعف في الضبط وهبوط في الاستعداد الحركي.

فتمس حاجة المريض حينئذ إلى الاستعانة بالعمر ليقوم بأقرب الحركات إليه كالمشي، بيد أنه يعجز عن أن يلائم بين حركات الخطو لتستقيم مشيته فتراه قد أعوزه الربط بين الحواس والعضلات في الطرق الصاعدة والطرق الهابطة.

وكلما وجد نوع من هذا الانفكاك حدث ما يسمى بالتردد أو المحاولة والخطأ. وفقدان التوافق يلاحظ في الطفل الوليد الذي لم يكتمل جهازه العصبي بعد، إذ تشبه حالته الحركية حالة الحيوانات الدنيا التي تتردد في أفعالها ترددا بينا. وليست الأفعال المنعكسة كما يرى جلدشتين إلا أفعالا ناتجة عن جهاز عصبي غير متكامل أي عن أعضاء منعزلة، فالعزل الطبيعي في الحيوان والصناعي في المعمل هو من أسباب تزايل التركيز، ومن هذا ينشأ نقص في الكف وفي دقة الحركة وتآزر أجزائها. والتركيز يجمع بين حركتي التآزر وهما التوافق Agonisme والتعارض Antagonisme ويوحد شكل الحركات. أما العزل والنقص في التركيز فيحدثان انفصالا في مراحل الفعل.

ولكي نفهم الفعل الإرادي يلزم أن تتبع مراحل الفعل في حالة التركيز التام وفي تزايلها عند النوم وفي ضعفها من أثر التعب أو المرض. وإلى التركيز يرجع الفضل في تكون معنى الشيئية Objectivation عند الشخص إذ يحدث العطب المخي وضعف التركيز اضطرابا في التمييز بين الأشياء وتحديدها ويصبح المريض في الوقت نفسه أسيرا للخطر والواقع المباشر عاجزا عن الانتظار. فلا قدرة له على فرض أي احتمال ولا حسبان أي

تقدير لطوارئ الأحداث، وتبعا لذلك لا يملك التقرير الحر بل يظل أبدا منقادا إلى تأثير أشياء تفرض عليه سلوكا معينا، وبذلك ينمحي ابتكاره الشخصي. ويقول جلدشتين إن المريض يعجز عن كل إنتاج مبدع ويفقد حريته كلها.[٥]

نحن إذن أمام حالتين نفسيتين تتقابلان: الأولى حالة إدراك الأشياء أي القدرة على الانفصال عن الشعور بالأمان في اللحظة الحاضرة واعتبار الذات موضوعا مستقلا عن البيئة أو إدراك حالة التغاير التي يعجز عنها الطفل. والحالة الأخرى المقابلة أن يعجز الشخص عن إدراك الأشياء بل يفقد الإدراك عينه ولا يجد أي ميل إلى فعل حر.

ويرى جلدشتين أن هاتين الحالتين اللتين تتأثران بأي خلل يصيب المخ تسايران النوعين المهمين من الحركة وهما القبض والبسط. والقبض مرجعه إلى المراكز العليا من القشرة المخية والمخيخية، والبسط خاضع للنخاع الشوكي.. وكذلك يلاحظ أن حركات القبض تدل على التلقائية والابتكار الشخصي والنشاط الذاتي أكثر مما تدل حركات البسط التي هي حالة سلبية تماثل حالة التراخي.

وحركات التسديد التي تتطلب كفا وتركيزا إنما تقوم على عملية القبض، على حين أن حركات الرمي الخابطة تتخذ عملية البسيط. وما

---

(٥) A. Gurwitsch. L'organisme d' aprés Goldstein
P. 130 - 131 Journal de psychologie 1939

أدى بجلدشتين إلى القول بالتساير بين هاتين الحالتين في الحركة ونظيرتهما في النفس وذلك لأن حركة القبض تحاول أن تفصل الجسم عن البيئة وتأخذ من البيئة للجسم، خلافا للحالة الثانية التي هي حالة خروج الجسم إلى البيئة مع فقدان التركيز والكف. فالأولى حالة إيجابية والأخرى سلبية وثمة أساس بيولوجي يؤيد هذا التساير ويربط الحالة الإرادية الإيجابية بحركة الفيض كما يربط الحالة اللا إرادية السلبية بحركة البسط. فإن حدوث قطع في المخ أو المخيخ بتلف الحالة النفسية الإرادية مع بقاء القدرة على حركة القبض وهذه الحالة خاصة بالإنسان غير موفورة للحيوان.

# الباب الثاني

# أثر النفس في الفعل الإرادي

## الفصل الرابع

# تطور الحركة وتطور الذهن

بحث جان بياجي Jean Piaget في دراسته لعملية التطور الذهني صلة الفعل الذكي بالسلوك الإنساني. ويعد البحث مقدمة مهمة لدراسة الفعل الإرادي ويشع ضوءا قويا على دراسة الفعل وفهم السلوك الإنساني عامة. ويشرح لنا بحث بياجي بعض النقط الغامضة التي لا يمكن للمنهج البيولوجي أن يوضحها. يمتاز الفعل عن الحركة الجسمية بالشكل الذي يثبت صلة الحركات بالعامل الذهنى كا لاح ذلك لجيميلي Gemelli إذ تبين أن كل حركة ترمي إلى تكوين شكل معين وأن سرعة الحركة تتأثر تأثرا واضحا بالغاية التي يهدف الشخص إليها.

وقد درست الأخطاء التي يرتكبها عامل ليس أمامه نموذج يوجه حركاته ويجمعها ويمكننا ملاحظة الفرق الشاسع بين الحالتين.

ويلاحظ أيضا أن التمرين على القيام بفعل يزيد من تقطع الحركات المكونة له ويجعل الفعل في مجموعة أدنى إلى الشكل المنشود، وذلك يؤثر أيضا في خفض الزمن المقدر للقيام بالحركة.

وأثر النموذج في الفعل يتلخص في مساعدته على تجديد الغاية والغرض، وعلى ما يقوم تكوين شكل الفعل الذي يرمي إلى نتيجة معينة

وهذا هو الفعل الإرادي [٦]. وبذلك تكون المرونة الحركية نتيجة تكيف مستمر لتدمج في أجزاء الفعل لها في شكل ترتبط عناصره ارتباطا دقيقا بالمعطيات الإدراكية ويساعد الإدراك في جمع الحركات على نحو يربطها ويوحدها.

وكأن وظيفة الإدراك في هذه الحالة تعتبر الطريق للحركة التعرف اتجاهها دون تكلف ولا تردد ولا ذبذبة وللاتجاه والغرض فائدة كبرى في القيام بالفعل إذ يكسبه شكلا يوحد بين عناصره.

فلكل فعل إرادى شكل في مكنتنا أن نعينه بمعادلة رياضية كما حاول ذلك جميلي Gemelli ولهمان Lehman . فلا بد من اعتبار أهمية العامل الذهنى في الفعل إذ لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

وتبقى أمامنا مشكلة معقدة تتلخص فيما يأتي: هل يمكن أن نصل إلى العوامل الذهنية بطريق الفعل أو العكس، وهذه هي مشكلة صلة الذكاء بالفعل وبالسلوك والانتباه الإرادي.

ثمة مركبات من الحركة، فنلاحظ توافقا بين أنواع منها لتكوين فعل يوحد شكله بين هذه الأنواع التي ينفرد كل منها بمعنى جزئي. ولهذا نقول مع بياجيه أنه يمكن للفعلين أن يكونا فعلا ثالثا مع أن كلا من الفعلين

---

(٦) Gemelli. La Psychologie Experimentale en Italie p. 3.

المتراكبين تحتفظ بكيانه الخاص. (٧)

وأهم فكرة يمكن استخلاصها من بحث بياجيه هي أن الفعل معناه الحركات المترابطة توصلا إلى غاية وإحداث التغيير فإن هذا النوع من الفعل يظل محتفظا باتزانه وتماسكه حين يصبح الشخص قادرا على الاحتفاظ بصور الأشياء وحين يكون له غرض ثابت يقوم على أسس مادية مستقرة فيتركز موضوع الفعل في زمان ومكان منظمين.

يتوقف الفعل إذن على فهم الحدود الإدراكية بين الشخص وما حوله من الأشياء ولا يكون الفعل منسجما إذا كان الشخص غير مدرك للزمان والمكان، لا فكرة له عن ذاته واستقلالها عما يحيط بها.

ويتطلب الاتزان السيكلوجي الذي يقوم عليه الفعل خمسة شروط:

١) تركب فعل جديد من فعلين.

٢) قابلية كل فعل للانقلاب

٣) إمكان الوصول إلى موضوع واحد من طريقين مختلفين

٤) قيام توازن بين تركيب الأفعال وتركيب أضدادها إذا قمنا بفعل ثم بعكسه أبطلنا أثره.

---

(٧) Pluget Archives de psychologie Tome 28 p. 240

كانت هذه الشروط الخمسة نتيجة دراسة تكوينية تتبعية، وهي تثبت لنا في الوقت نفسه قيام الفعل على توازن سيكولوجي. وهذه كلها ذات شأن وبخاصة ما يتطلب منها شرح صلة الفعل بإدراك الأشياء وبالقصد والغاية وبالزمان والمكان.

## الفصل الخامس

# الوسائل والغايات في تركيب الأفعال

ينبغي أن نميز بين نوعين من الفعل : نوع يصدر عن التركيب الجسمي ويتصل اتصالا مباشراً بالميول النظرية الأولية . ويطلق على هذا النوع اسم الفعل الغريزي . ونوع آخر يتأثر بالتمرين ويتحسن بالتجربة ويستخدم وسائل مختلفة ويتخير له غايات معينة. ويسمى هذا النوع بالفعل الذكي . وفي كلا النوعين يستخدم الأعضاء أعيانها ، ويبذل النشاط الجسمي نفسه ، بيد أن الفرق الواضح بين النوعين أن النوع الآخر يحاول دائماً أن يركز الفعل في ناحية خاصة من الجسم. وفي الوقت نفسه لا يبذل إلا أقل نشاط نفسي ممكن بالربط بين الحركات والأفعال.

والفعل الغريزى من حيث البساطة والتركيب يستجيب استجابة مباشرة للمنبهات. وأما الفعل الذكي فإنه ينتظر ويتكيف ليحل المشكلة ويستجيب للموقف استجابة شاملة، ولذلك يبدو الفعل الذكي أتم استقلالا عن المنبهات الجزئية الخارجية وأشد اتصالا بالذاتية ومن ثم يطلق عليه اسم الفعل التلقائي.

والمرحلة الأولى للفعل أن يكون متصلا بالمنبهات خاضعة للبيئة ثم يستقل وينفصل عن المنبه زمان ومكان. وبعد المحاولة والخطأ يمكن أن يوجه الشخص أفياله وينهج لها طريقة مختاراً ليتجنب الأفعال الطائشة. ولقد كان

لتطور الإنسان كبير الفضل في تعرفه وجوه القدرة على التكيف لأن المخ الإنسان كان على قول شرنجتن أول وسيلة لإمكان الفعل.

ويفيد المخ بالكف والتركيز إمكان الربط بين المنبه الطبيعي والمنبه الشرطي، ولعل الفعل المنعكس الشرطي أول خطوة نحو التحرر من الخضوع إلى منبه بعينه. لأن الرمزية التي يقوم عليها التجريد والتعمير نوع من الربط بين منبه طبيعي ومنبه وشرطي، وأساس استخدام اللغة هو القدرة على إدراك معنى الرمز، ولذلك جعل بافلوف آلية المنعكس الشرطي محوراً النشاط الإرادي. وقد أفرطت المدرسة السلوكية في التعويل على المنعكس الشرطي لشرح السلوك المهذب.

وحاول خصوم السلوكيين التهوين من شأن آثار المنعكس في الأفعال الإرادية واعترف كالاباريد أن الاستجابة لمنبه شرطى تتطلب نوعاً من النشاط وأنها ضرب من التكامل المركب.

وليس من قبيل الموافقات ظهور اللغة التي تتكون من الرموز في الوقت الذي تظهر فيه الأفعال الذكية الموجهة. واللغة من حيث هي لغة أفعال موجهة تعبر عن أفعال أنفذت أو في المكنة إنفاذها. ولا جدوى من إدراك الأشياء إن لم تكن هناك لغة ترسم صور هذه الأشياء المعبر عنها بأفعال لفظية؛ فاللغة إذن من أهم الوسائل لتركيب الأفعال ولتحديد الغاية. وتنظيم العالم يبدأ بتسمية الأشياء، فما لم يكن منها مسمى كان في حكم العدم.

لولا الأسماء لما تجلت صور الأشياء والمعاني التي تكشف عن وجه الصلة بيننا وبين الأشياء وفقا لآثارها في الخارج.

وثمة رابطة تصل الأعمال الجسمية المعقدة بالتفكير، ويظهر ذلك في إدراك الغاية وهي تصور النهاية في العمل. وأغلب الأفعال العادية الضرورية مثل المشي والتوازن الجسمي وترابط حركات اليد وحركات الرأس أفعال لا يتصورها الشخص في تفكيره وإزماعه عمل ما لأنها أفعال قد تعودها الشخص؛ فالأفعال المتصورة في الذهن هي الأفعال الصعبة المعقدة أو الأفعال السهلة العادية إذا صادفت ما يعرقل سيرها. وما علينا إلا أن نحاول أن نقص على شخص أعمالنا اليومية مع ذكر التفصيلات الجزئية لنراه وقد أسرع إليه الضجر، وقد ينقلب ضجره إلى ضحك تعجب.

تمثل أنك تريد أن تخبر صديقاً بأنك ذهبت لتزوره ولم تجده فبدأت تقص عليه كيف خرجت من منزلك ذاهباً إلى محطة السيارة تنتظر مقدمها، ولما جاءت أسرعت إلى الركوب فيها خضر عاملها يقتضيك الأجر، فدفعته له ليعطيك تذكرة الركوب، وهكذا.

ألست ترى السامع يضيق بما يسمع ويكره أن يصغي لكل هذه التفصيلات التافهة المألوفة إذ تريده على أن يقوم بعمليات ذهنية لا بال لها ولا هو بمحاول أن يقوم بها في حالات التفكير العادي؟ أو لست ترى هذا السامع يأنس بحديثك الموجز المهذب الذي نفيت عنه بداهة الأمور وجنبته مألوف الأفعال.

وقد يبلغ إلف الذهن لاختصار الأفعال أن يتخطى بعض المراحل المهمة، وقد تمس حاجة الشخص تصوير العمل في الخارج ليستبين التسلسل الطبيعي الأصلي للأفعال، وليس تقدير الأوزان والمقاييس إلا فعلا ذهنيا ينوب عن الفعل الخارجي. ولا يعول تعويلا تاما على الأفعال الذهنية، ولكن حين يقوم الشخص بالأفعال الحركية الجسمية للمقاربة والموازنة بين الشيئين لا بين صورتيهما، يقوي اليقين بالفعل العضلي الخارجي.

لهذا السبب أثرت الدراسات الهندسية في المنطق وكان للهندسة بفروعها كبير فضل في تعويد الشخص التزام مراحل التفكير بدقة وافية وتجنيبه الطفرة التي تتخطى مراحل كثيرة وذلك لأن الهندسة تجمع بين الفعل الذهني والفعل الخارجي الجسم في الرسوم.

ولو تأملنا أثر الفعل الخارجي في فعل الحكم Acte De Jugemont لوجدناه يتلخص في تحديد العلاقات بين الأشياء لتعيين مراحل الفعل ونهايته أي أن الفعل الخارجي يساعد على توضيح العلية وتحديد الغاية؛ لذلك نجد للمحاولات الخارجية أثرا كبيرا في اكتشاف الآلات. فلا بد أن يعمل الفكر متصلا بالخارج لتحدد صلة الأشياء بعضها بعض وصلتها بما يبغيه الشخص منها، وبذلك وحده يصبح الإدراك كما قال برجسن فعلا.

وما قيل في الأشياء المجسمة ينطبق على عالم الصور؛ فمحال أن

يدرك المفكر الغاية بنظرة سريعة إذ لا بد أن يبدأ التعبير عن أفكاره حديثا أو كتابة لينظم أفكاره ورسم خطة السير بألفاظ تهديه إلى اكتشاف الوسائل المؤدية إلى الغاية.

ويدنينا هذا من نظرية كلاباريد الوظيفية لأن الشخص الذي يبدأ الفعل بالتفكير يلقي بنفسه في وسط الميدان الشعر بالحاجة إلى أشياء، أو بعبارة أخرى يجعل نفسه في حالة تسمح له بإدراك وظائف الأشياء.

إن أهم ما يمتاز به الفعل الإرادي هو قيام غاية يرمي إليها الشخص ويحاول أن يصل إليها باستخدام وسائل ولكن لا يتسنى لأي فعل أن يحقق الغاية على الفور فيضطر الفرد إلى أن يستخدم سلسلة من الأفعال نتائج بعضها وسائل للبعض الآخر.

وقد عني كوهلر Kohler بهذا الموضوع ودرسه على وجه التفصيل عند القردة، ويتميز القرد «سلطان» بعض الأفعال كالقدرة على الربط بين فرع الشجر المتصل بالجذر وبين استخدامه وسيلة لتقريب الثمرة. ولعل مثل هذه الأفعال يدل على ذكاء وفهم يربطان بين الوسيلة والغاية أكثر من دلالته على فكرة تخرج من الأفعال المستقلة فعلا جديدا موحدا لأن القرد يقوم بهذه الأفعال مجزأة ويربط بينها بالمصادفة أو بقفزة ذهنية Insight تظهر في وقت مفاجئ بعد عدة تجارب. وهذه القفزة نادرة لا توافى إلا حين تدفع إليها حاجة جسمية قوية.

وأعسر خطوة خطتها الكائنات الحية في تطورها هي الانتقال من

الفعل في المكان إلى تصور مكان الفعل، ومنشأ الصعوبة اضطرار الشخص إلى أن يرجع إلى نفسه ليلاحظ أفعاله القديمة ويتصور على أساسها أفعاله المستقبلة وليصل إلى ذلك إلى ذلك لا محيص له من أن ينسى ذاته في الوقت الحاضر ليتصور ذاته في المستقبل وفي مكان شبيه بمكان أجرى فيه مثل هذا الفعل في زمن مضى، ولا يمكن بغير ذلك أن يوجه الشخص فعلا وأن يستهدف غاية. ونحن نرى أن دراسة الفعل الإرادي تتطلب وقوفا على صلة الفعل الزمان والمكان.

## الفصل السادس

# أثر التنظيم الزماني المكاني في الأفعال

يتأثر تركيب الفعل الجديد من فعلين آخرين مستقلين عنه بإدراك الزمان وإدراك المكان، وتنظيم البيئة الطبيعية للشخص وللشيء. والدراسة الدقيقة الموضوع التنظيم الزمان المكانى توضح لنا أثر تركيب الفعل في الاتجاه (Attitude) والأسس الفسيولوجية البيولوجية لإدراك الشيء والموضوع الخارجي المحدد بين أهمية الزمان والمكان لتمييزه الذات عن الشيء. ويتعذر علينا أن نفهم الفعل الإرادي المعبر عن كفاح بين الذات واللا ذات ذلك الذي يرمي إلى تحقيق البيئة الملائمة للذات إلا إذا تيسر لنا إدراك المجال.

وأهم أثر لإدراك المجال هو التمييز بين الممكن وغير الممكن من الأفعال. وفي الأفعال التي تحقق المحاولات في تأديتها يوضح الإخفاق ما للمجال الحيوي من حدود ضيقة، والطفل يحاول كل الأفعال على وجه التقريب إذ نراه أحيانا يمد يده لينال القمر أو ليدفع خزانة كبيرة. فالحالة الأولى وليدة النقص في إدراك المسافة، والحالة الثانية وليدة العجز عن إدراك الحجم والوزن، وبديهيا يأخذ الطفل في تكوين فكرة عن حدود أفعاله. ويعرض عن الأفعال الخارجة عن نطاق مجاله الحيوي، وبذلك يتكون الإدراك بالمكان الذي يتوسل به الطفل إلى معرفة الممكن وغير

الممكن دون ما حاجة إلى التجربة الفعلية الحالية . وللإدراك مهمة أخرى هي معرفة العلمية، فالطفل إذ يحاول اكتناه علة شيء يدخل في حساب تفكيره إدراك المجال الحيوي ويميز بين الممكن وغير الممكن ويتصور العلة في نطاق الإمكان.

وكل فعل يمكن أن يتأثر بهذا الإدراك وبهذا التميز بين الممكن وغير الممكن، وإن تكيف الفعل بالمواقف المختلفة وتغير اتجاهاته ليرجع إلى هذا التمييز. وأما إدراك الأشياء بوصفها موضوعات مستقلة فلا يكون إلا بإدراك الإنسان قدرته على التدخل في تغيير الفعل كإدراك القرد "سلطان" لفرع الشجرة وتمييزه إياه عن سائرها. فإن هذا الإدراك لم يتم إلا بعد أن وجد القرد نفسه في حاجة إلى عصا مستقلة. فالصلة بين الفعل وبين العصا والفكرة الواضحة عن المكان جعلت القرد ينظر إلى الفرع نظرة خاصة لتظهر نوعا من الفعل كان مستحيلا في مجاله الحيوي فأصبح ممكنا أو بعبارة أخرى توسل القرد بالفرع لتوسيع مجاله الحيوي.

ولتجلية قيمة المجال الحيوي في الفعل والحركات الحرة ينبغي أن نتأمل مثلا حالة السجين. فإنه بعد تعوده مجالا حيويا واسعا يجد نفسه في مجال ضيق محدود يتعذر فيه القيام بمختلف الحركات والأفعال التي كان يقوم بها السجين ما برح، من حيث كيانه الجسماني، قادرا على تأديتها.

ويفقد سلوك السجين كل صفات التغيير والتجديد، وبخاصة إن كان المحبس خلاء من كل شيء، فكلما وازن بين حالته الحاضرة في ذلك المحبس

وحياته الطليقة من قبل، ركبه الهم ووخزه الألم، ولا يستشعر الراحة والطمأنينة إلا إن ضرب صفحا عن رغبته في القيام بأداء حركات حرة متنوعة كان يؤديها فيما سلف من أيامه.

ولكي يتسنى للسجين أن يغالب كربته، وأن يرضى بحالته الراهنة، ويقنع بما تيسر له من حركة فينبغي له أن يشق لنفسه منفذا أعني مجالا حيويا جديدا هو مجال الأخيلة والتصورات.

وليس هذان الموقفان بمقصورين على حالة السجين وحده، بل هما يصادفان كل شخص في حياته الطبيعية؛ فلكل شخص مجال خاص يعمل فيه مهما يكن من سعته فهو محدود، لأن النفس تهفو دوما إلى مالا يستطاع من الأعمال. وإذن هذه الأعمال خارجة عن حدود المجال الحيوي. وإن كثيرا من الناس ليضيقون حين يمثل لهم عجزهم عن تناول الأعمال الخارجية عن نطاق المجال ولا يستطيع الشخص أن يفيد من حريته تمام الإفادة إلا إذا عرف حدود مجاله ووجه نظره إلى الأفعال الممكنة بالنسبة إليه أي الداخلة في مجاله الحيوي، وإلا يشي بذلك التنازع النفسي ولازمه شعور بالعجز الذي لا يلبث أن ينبسط حتى يشمل الأعمال الداخلة في الإمكان. ومنشأ هذه الحالة الشاذة غلو في الليل إلى توسيع المجال الحيوي. وهذا الليل أكثر ظهورا في الطفل الذي يقوم على أسلوب التمثيل فيخرج عن مجاله الحيوي، ويرى ذلك جليا فيما تحاوله بعض السيدات اللواتي يتشبهن بالرجال.

يتحدد المجال الحيوي بالتكوين الجسمي ومبلغه من القوة والكمال وبالبيئة الطبيعية والاجتماعية، ويدرك الضيق كل من حاول أن يتعدى حدود مجاله، فمن حرم المقدرة الجسمية على الرياضة مثلا، ورغب في القيام بها رغبة ملحة جارفة أدركه اضطراب نفسي، وكان من أثر العجز عن إرضاء هذا الميل تعطل الميول الممكنة الأخرى، وكذلك إذا أقام الشخص في مجتمع معين وتكيف به ثم حاول أن يعدوه إلى مجتمع أرقى منه شعر بثقل فيه، واضطرب سلوكه وضعفت إرادته وزالت عنه حريته.

يحاول الجسم أن يفسح له مجالا للعمل والتأثير في المجتمع وفي البيئة الطبيعية، فإذا عجز لجأ إلى مجال التصور الذهني، والإرادة وظيفة تحاول أن توفق بين المجالات الأربع، وهي المجال الجسمي، والمجال الاجتماعي، والمجال الطبيعي، والمجال الذهني. وإن ما بين الحركات ومختلف المجالات من الاتصال وخاصة الميل إلى توسيع المجال بالتصور ليوضح لنا صلة الفكر بالفعل.

وملاحظة بعض الحالات الشاذة تؤيد فكرة المجالات الحيوية، وأهمية تكاملها لتوجيه الفعل. يدأب بعض الأشخاص على الكذب على نحو يسترعي الاهتمام وقال تارديو إن بعض الأشخاص قد يهوى الكذب لذاته دون حاجة أو جدوى. ولا يقتصر كذبه على القول بل قد يتعداه إلى الفعل المؤيد. ويضيف تارديو إلى ذلك قوله إن الشخص يمثل تمثيلا بارعا ويستخدم خاله ليصل بتمثيله إلى حدود قد تبلغ مبلغ الضرر.

عدد ب . جانيه أمثلة لهذه الحالة، أهمها حالة امرأة كانت مولعة بتدبيج رسائل الغرام تبعثها إلى أشخاص، وتسايرهم بالتكاتب إلى أن يتحرج الموقف بينها وبينهم، وساقها هذا الولوع إلى دور القضاء.

وإذا ألقينا نظرة على صلة المجالات الحيوية بالفكر وبالفعل سهل علينا أن نفهم مبعث هذه الحالة. فليس مرض الكذب إلا ميلا إلى توسيع المجالات الحيوية التي ضاقت عند المصاب بهذا المرض المصاب بالضعف أو الحرمان أو النقص الجسمي، الخ فالكذب في هذه الحالة ضرب من ضروب التعويض.

# الفصل السابع

# صلة الإرادة بالمجال الحيوي

تمهد لنا فكرة المجالات الحيوية وربطها بالفعل أن نتحدث عن مصدر بعض الأمراض النفسية المنتشرة، والشذوذ الخلقي الملاحظ في جمع كبير من الناس، وما الكذب المزمن باعتباره اضطرابا بالإحالة له نظائر أخرى تبدو لنا هينة وطبيعية، ولكنها في الواقع دلائل ثورة على التربية والفعل الإنساني، والسلوك العام، فأغلب هذه الاضطرابات وليدة الكفاح بين المجال الحيوي الجسم والمجال الحيوي الاجتماعي.

نجد كثيراً من الناس يبالغون في الشكوى، ويجدون أنفسهم دوما في حاجة إلى العطف، وهم يشكون من أشياء تنقصهم كشكواهم من أشياء حائقة بهم يرونها مجلبة للضيق. ولو تأملنا حالة هؤلاء الأشخاص لوجدناهم مصابين بنوع من الشلل الإرادي حين يواجهون أفعالا لا يستطيعونها في مجال دون آخر، طوراً يساعدهم الفكر ويخونهم الجسم، وطوراً يساعدهم الجسم وتخونهم البيئة. وتنشأ أغلب هذه الاضطرابات من ضعف عصبي، أي من ضيق المجال الجسمي، فلا يغدو الشخص قادراً على الاستمرار في عمل، ولا يمكن أن يتمه.

ومن ثم يتولد الشعور بالنقص، إذ يحاول الشخص تبرير موقفه للآخرين، فيلوذ بإحدى اثنتين، إما الشكوى مع إخفاء الضعف، وإما التظاهر وتصنع الراحة. وهذا الموقف يحدث في نفسه شعوراً بالفزع. ويتبع ذلك عدم قدرة الشخص على البت في أي موضوع أو اتخاذ أي قرار حتى في البسيط من الأفعال، فتراه شديد التردد بالغ الضيق، وكذلك يعجز عن تغيير سلوكه ويستمر في القيام بالأعمال المألوفة له ويعانى كبير مشقة في محاولة الجديد من الأفعال وآثار هذا الاضطراب الجسمي تمس الإرادة.

أكثر الأشخاص يقومون بالأعمال مجبورين لا مخيرين، فليس في أعمالهم حرية أو تنوع، وإنما هي متحجرة على وتيرة واحدة، فيشعر الشخص بنفسه محصوراً في حدود مجال من المجالات، مدفوعا بحاجات جسمية، أو مقيداً برقابة اجتماعية، وسر العظمة والنبوغ في الأعمال الحرة التي يقوم بها الشخص من تلقاء نفسه ولا يبلغ ذلك إلا بعد كفاح مرّ يحقق به اتساع المجالات الحيوية متخطياً تلك العقبات التي تحاول أن تحصر نشاطه في دائرة من الدوائر.

وكلما كان الشخص حراً تعددت أمامه وجوه الحمل، وأنواع الأفعال، وشعر بمختلف النواحي تتجاذبه، فيعجز عن البت في تعيين اتجاه له، وكثيراً ما يضجر الحال، ويدرك خطر موقفه، ولكنه لا يجد حيلة للتغلب. وقد توافرت لي شروط التفرغ لناحية من العلم في السنة الأولى من إعداد رسالة الماجستير، وفي السنة الأولى من إعداد رسالة الدكتوراه، وشعرت بحالات غريبة من التردد بين الأعمال المختلفة وتنازعتني

مشروعات كثيرة، ولحقني شيء من الاضطراب، وعدم القدرة على البت، وإذا أنا لا صبر لي على الاستمرار في العمل. ودفعتني هذه الحالة إلى الشعور بالنقص والعكوف على راحة الأحلام. وألقيت نفسي على وشك التلبس بالحالة التي أشار إليها به جانبه Janet . P إذ قال يمكن أن نجد عند كل المرضى بالعصاب بجانب الشعور بالفراغ هبوطا عميقاً في الوظائف العقلية جميعها. وتلاحظ في الذكاء نوعا من التوقد الظاهر مع حالة من الكسل واستغراق في الأحلام على وجه خاص، وهؤلاء المرضى لا ينتبهون لشيء ولا يواظبون على كل عمل ذهني، وأغلب حالات العصاب تبدأ في الشباب بوقوف الدراسات، وبالعجز النهائي عن تلقن العلم [٨].

يمكن أن نلاحظ في هذه الأحوال اضطراب شكل الفعل، إذ تتأثر أفعال كثيرة بهذا الاضطراب، وأغلبها من الأفعال الضرورية التي يجب القيام بها، فتنفك أجزاء الفعل بعجز الشخص عن الربط بينهما، فإذا أراد أن يكتب مقالا أو ينجز وعداً فإما أن يقف العمل قبل تمامه وإما أن يستغرق مدة من الوقت يحتاج الشخص إلى تجزئة العمل لأسباب تافهة فيتفكك ويصبح عرضة للتوقف وقد يتعجب بعض الأشخاص من أنفسهم إذ يصبحون غير قادرين على إنشاء رسالة. قد يصدق عزمهم على الكتابة ولكنهم لا يفعلون على الرغم من إحضار الورق، وربما كتبوا بعض الرسالة ثم أقلعوا عنها أو كتبوها كلها ووضعوها في غلافها ثم توانوا عن كتابة

---

(٨) P Janet Les N'evroses P. 315 Flammarion

العنوان أو وضعوها في جيبهم دون أن يستوفوا ما يلزم لها من طابع البريد، وقد يمتنعون من إلقاء الرسالة في الصندوق وإن وضع الطابع، وإن هذه الحالات الشائعة كثيرة، يتساءل الناس عن أسبابها، ويقتصرون على تعليلها بنسبتها إلى الكسل، وقد يتحدث بها بعض الأشخاص عن نفسه مبتسما ابتسامة غريبة تدل على الاعتراف بحالة الضعف. وبإرجاع التوازن إلى الحالات الحيوية يمكن العثور على علاج لهذه الأحوال الخفيفة التي تدل على بدء اضطراب نفسي، قد يستفحل حتى يشمل مختلف النشاط النفسي والجسمي، إذ فربما يحرم الشخص نفسه حاجات جسمية كالاجتماع الجنسي وربما اشتد الأمر أحياناً فأضرب عن الطعام.

قد يقال في تعليل هذه الحالة أنها ناشئة عن اضطراب انفعالي فنعالج بوقف الحالات الانفعالية، وكنت أعتقد ذلك لأني لاحظت في نفسي سنة ١٩٤٤ بعد وفاة والدتي ميلا إلى التعبير عن حبي لها والشكوى من هذه الخسارة التي أصابتني بفقدانها، وقضت على أملي في رؤيتها بعد العود إلى الوطن. وفي السنة نفسها "صادفت"، في بيئتى ما يثير في نفسي شديد انفعال. وكنا نقول قبل اليوم "صادفت" لأننا لم نكن نعلم شيئاً من أمر التوجيه الخفي الذي يحدثه اضطراب المجالات الحيوية. لا شك في أن وفاة والدتي أحدث تغييراً كبيراً في مجالي، ولا مناص من أن يحدث ذلك التغيير اضطراباً في التوازن السابق، ويدفع إلى البحث عن التعويض لإرجاع التوازن.

وليس مرض العصاب من مختلف الوجوه غير اضطراب المجالات

**الحيوية عند الشخص ولذلك يضطر إلى التعويض فيكون ما لاحظه جانبه على العصابيين إذ قال: يحتاجون إلى جلب الانتباه لنهتم بهم ولنكلمهم ونمدحهم ونحبهم. ولكن رد الاضطراب إلى الانفعال ليس بكاف لأننا تلمس عجزاً كبيراً في القضاء على هذا الاضطراب وإرجاع التوازن النفسي، فلا بد من معرفة أصل الاضطراب الانفعالي نفسه وكيف نشأ ليمكن أن تعالج أثره من بعد، والتعويل على نظرية المجالات الحيوية المختلفة يشع لنا ضوءًا على أنواع الاضطرابات النفسية كلها وينبغي اعتبار هذه النظرية دعامة لدراسة أهم موضوع في الحياة النفسية وهو الفعل والانفعال.**

الفصل الثامن

# الفعل والانفعال

أسلمتنا دراسة التنظيم الزماني المكاني للبيئة إلى فكرة المجالات الحيوية وضرورة التوازن بينهما. وقد عالجت أن أخلص من دراسة الأسس البيولوجية للفعل الإرادي إلى تحديد العوامل الخارجية التي تساعد على تنظيم الأفعال.

ليس بكاف أن نقول بوجود شروط جسمية فسيولوجية للفعل الإرادي. وفي الفصلين السالفين دراسة للشروط الأساسية للفعل الكامل. وإن نظرة موازنة بين الفعل والانفعال لتمثل لنا التكامل بين الجسم والنفس والمجتمع التوجه الفعل حتى يكون إرادياً. وأعلى درجة للنشاط الإنساني تظهر في إدراك الواقع على اختلاف أشكاله كما يقول ب . جانيه وأهم هذه الأشكال هو الفعل.

ولو تأملنا أبسط الأفعال لوجدناها تتطلب تكيفاً بالخارج؛ فالعامل الذي يحاول أن يكسر الحجارة يبذل مجهوداً معيناً يظهر في فعل ملائم ويبدأ التكيف بالإدراك ويستمر في معرفة الوضع الجسمي الملائم. وبعد ذلك يأتي الفعل. والفعل يتطلب دائماً كمية من النشاط النفسي توجه الحركات لتركب منها وحدة معينة. ولذلك نلاحظ أن الطفل الصغير يفقد هذا الانسجام وتظهر أفعاله كلها طائشة أي أنها لا تصيب الهدف. فتارة

يكون المجهود المبذول قوياً جداً يؤدي إلى الإتلاف، وتارة يكون المجهود ضعيفاً فاقد الأثر.

وكذلك الرجل في حالات الانفعال يفقد هذا الاتزان وتوجيه النشاط، فيضطرب الفعل وينقطع أو يندفع اندفاعات طائشة ويظهر ذلك واضحاً في حالات الفجاءة حين يتهمك شخص في عمل يتطلب توجيهاً معيناً، وإذا صوت مزعج أو إدراك بصري شديد يظهر فجأة فيلاحظ أن الحركة تندفع في اتجاه غير الاتجاه المنشود ولا يلبث الشخص أن يفقد سلطانه على نفسه.

وقد تحدث بعض الاضطرابات المستمرة آثاراً ثابتة، ويظهر ذلك في صورة فعل لا إرادي مشهور بلفظة Tic في اللغات الأوربية ويمكن ترجمتها باللازمة.

وللناس عذرهم في التعجب من موقف نظرية جيمز ولانجي التي هي فيها يبدو معارضة للواقع ، وإذ أنهما نظرا إلى حالة الانفعال في فترة معينة من النمو فنظرتاهما صحيحة فيما يختص بالأطفال وأشباههم في هذه الأحوال كالمصابين بالفصام الذين ينفصل لديهم التعبير العضلي عن الشعور.

وفي حالات النضج يتجلى فيها التكامل ويكون الشعور سابقاً للتعبير العضلي، إلا في حالات اشتداد الانفعال فإن التعبير عن العمليات الذهنية يصاحب الشعور كما بيناه آنفا في فصل الموازنة بين تطور الحركة

وتطور الذهن لأن الفعل صدى لعدة عمليات ذهنية تكون وحدته وشكله واتجاهه. والفعل بلا عمليات نفسية لا يكون فعلا وإنما هو خليط حركات مبعثرة لا تربطها وحدة ولا تجذبها غاية، وصعوبة الفعل على قول ب . جانيه ناتجة من أن الفعل يواجه الواقع الذي يتطلب التأثير في الموضوعات الخارجية، وهو يرى أن الفعل يصعب إن توجه نحو المجتمع، لأن الفعل الموجه نحو الطبيعة يتطلب فهما ثابتاً للأشياء، وأما الفعل الموجه نحو المجتمع فإنه يتطلب تكيفاً متجدداً تابعاً في تطوره لتطور أحوال الناس وأخلاقهم المتمايزة.

وفي صدد هذا النوع من الفعل الموجه خارج الذات يذكر ب . جانيه صنف الأفعال الذهنية القائمة على التصورات والأخيلة والأحلام، وقد يعجب القارئ كيف نذكر هذه العمليات باسم الفعل. ولكن دراسة الصلة بين الحركة والعمليات الذهنية عند ب. جانيه تبين أن ما نسميه عمليات ذهنية ليس إلا إسقاطاً للحركات الجسمية. ويقول ب. جانيه أن العمليات الحركية المضطربة لا تقوم على أي تكيف وهي حركات طائشة لا تؤدي أية وظيفة وتدخل في هذا الخليط الاستجابات المختلفة المعبرة عن الانفعال. ودليل ب. جانيه على بساطة هذه الأفعال هو أنها لا تستعصي على أضعف الأشخاص.

ولنا أن نستخلص من هذا فكرة ذات شأن هي فكرة جعل الانفعال في الطرف المقابل للفعل الإرادي القائم على الانتباه. لأننا نرى ب. جانيه يعير لوظيفة الانتباه كبير اهتمام فهي الوظيفة الوحيدة التي تصل الشخص

بالواقع أوثق اتصال.

إن دراسة الصلة بين الفعل والانتباه لطريق إلى فهم حقيقة الفعل الإرادي وإن تتبع اضطراب الانتباه في التعب والنوم والانفعال ليجلو لنا مدى صلة حركات الفعل بالحالات الذهنية.

تعمق الدكتور جورج دوماس في دراسة الانفعال، فميز بين نوعين منهما ١) الانفعال الإيجابي ٢ ) الانفعال السلبي. فالأول يتطلب تهيجا عاما للجهاز السمبثاوي، والثاني يقوم على هبوط التوتر العضلي. لكل من التهيج والفتور شعور معين يصطحب التغييرات الجسمية العامة. وقد أقام جيمز ولانجي مشكلة العلاقة بين الحالة الشعورية والحالة الجسمية، وذهبا يقران خلاف ما يتبادر إلى الذهن. فنحن – فيما يريان – نخاف، لأننا نرتعد، ونحزن لأننا نبكي. وكان هذا الرأي الغريب مثار العجب والدهشة عند أشخاص لأنهم لم يكنهوا الغاية التي رمى إليها هذان الباحثان.

يتصف الانفعال بصفة مهمة هي عدم الاتجاه وانتشار الحركة والنشاط في الجسم كله أثناء الانفعال الإيجابي وانعدام الحركة في الجسم كله وهبوط النشاط أثناء الانفعال السلبي.. ويمكن أن نطلق على كل حالة وصف انعدام التوازن ويظهر انعدام هذا التوازن في الدورة الدموية وفي التنفس، والتوتر العضلي وقف الشعر وحركات الأحشاء – وقد يمتد هذا الاضطراب إلى عمليتي الهدم والبناء Métabolisme ويتبع ذلك تغير في حرارة الجسيمة وذلك ما لاحظه بيرون ودريان Derrein إذ أوضحا أن

انفعال الخوف يحدث زيادة السكر في الدم بمقدار أكبر من الزيادة التي تظهر في حالة الفزع.

ويصدر عن الجسم في حالات الانفعال حركات تحاول أن تتكون في شكل أفعال، غير أنها ناقصة دائما من ناحية التكيف والتوجيه. وتختلف الأفعال التي تصدر عن الشخص في حالات الانفعال عن الأفعال المنعكسة بأن الأولى يصحبها دائما نوع من الإحساس يزيد وينقص في الاضطراب على حسب شدة الاضطراب الجسمي.

فثمة إذن ارتباط بين حالة الجسم وحالة النفس، وقد رأينا في نهاية فصل الأسس البيولوجية للفعل الإرادي أن للناحية النفسية صلة وثيقة بقيام وحدة شكل الفعل. وليس بممكن أن نقول إن هذه الصلة سابقة للحركة أو الحركة مسابقة للذهن وقد أثبت بياجي قيام توازن بين الذهن والحركة وعلى حسب نظرية جيمز في الانفعال تسبق الحركة الجسمية العملية الذهنية التي تتمثل في الشعور.

# الفصل التاسع

# تنظيم الفعل

يعارض ب. جانيه موقف جيمز فيري، أن الاضطراب الجسمي عامة، والحشوي خاصة، ناشئ عن الحالات الشعورية النفسية، وكانت الخطوة الكبرى التي خطاها جانيه، هي جعله عنصر الفعل واسطة بين الشعور والتغيرات الجسمية، وفي رأيه أن الحالات النفسية لا تؤثر في الجسم إلا إذا انقلبت أفعالا. ويتمسك من جهة أخرى بفكرته القائلة بأن الإحساسات الشعورية منظمة للفعل، والتنظيم إدخال الحركات في الأشكال. ولو تعمقنا قليلا في مناقشة هذه الفكرة، لوجدنا ب. جانيه يضطر إلى القول بوجود حركات مضطربة سابقة للشعور. وبذلك ترجع إلى نظرية و. جيمز التي تقول باضطراب الجسم قبل مبادرة الشعور بالانفعال، فالفكرة إذن مؤيدة لهذه النظرية.

تلك هي الآراء المتضاربة في علاقة الانفعال بالشعور والعمليات الذهنية وما يتبعها من علاقة الفعل المنظر الموجه في صورة أشكال حركية بالانفعال المكون من حركات متفككة طائشة، ولعل من الخير أن نوضح هذه النقطة لا لفهم الفعل الإرادي من الناحية النظرية ولكن لكي نتحقق فائدته من الناحية الطبيعية.

وإني أؤيد نقد جانبه الذي وجهه إلى أساس النظرية، فقد بنى نقده

على ملاحظاته الإكلينيكية، إذ أظهرت له الحالات العصبية التي شهدها فرقا كبيرا بين حالتين متقابلتين: الأولى الاضطراب البسيط، والأخرى ما سماه وظيفة الواقع. وأدرك كذلك أن بين هاتين الحالتين مراحل من مستويات الحالات الشعورية. ولاحظ أن هناك نشاطاً نفسياً قد تزيد شدته أو تنقص، ويسمى برجسن هذا النشاط العام: الانتباه الحيوي Attention Vitale

وفي وسعنا أن نقف مما قاله برجسن على فكرته في شدة الصلة بين درجة النشاط المبذول وبين درجة الإدراك العادي الذي تقوم عليه اليقظة، وإن ضعف درجة الاهتمام قد يحدث النوم أو شرود الذهن في أحلام اليقظة أو توهم الرؤية القبلية Sentiment Du Deja Vu وإن كانت وظيفة الواقع عند ب . جانيه هي أعلى درجة للنشاط النفسي وأن الانتباه الحيوي هو بدوره أساس كل العمليات النفسية ويقوم هذا الأساس على الإدراك ويثبت قوته، فتكون وظيفة الواقع كما قلت في الانتباه الحيوي هي الانتباه الإرادي.

ويمكن أن يستفاد من بحث الانفعال والانتباه في فهم المهمة التي يؤديها الذهن في الفعل الإرادي. وقد أقمت دراسة في الصلة بين الانتباه والانفعال على أساس ملاحظة ب. جانيه القائلة بأن التوقف عن الفعل والانتظار كان أساس الإدراك والانتباه وسائر الظواهر النفسية "لقد كان الفعل كل شيء في الدرجات الدنيا من سلم الحيوانات ثم صار بحكم التعلم والعادة رغبة في التكيف الذي يتطلب تجزئة الفعل وبذلك انقسم الفعل

جزءين، أهبة مسلحة بتصورات وتقديرات ورسم المختلف الاتجاهات الممكنة. ومن هذا الجزء تتألف الظواهر السيكولوجية والجزء الثاني هو أفعال الإرادة التي تخرج من نطاق التصور والتقدير إلى حيز التنفيذ.

وكلما عني الشخص بالانتظار والتوقف وقوى اندفاعه إلى الغرض أفلتت منه فرص التكيف، وأدى ذلك إلى اضطراب وفقد توازن نسميه الانفعال ويحاول الشخص في كل فعل أن يبعد جهد إمكانه الانفعال بالقدر الذي يجعل فعله موجها إرادياً. ولكن لا نستطيع أن نفصل الفعل عن الشحنة العاطفية الانفعالية، ومهما يكن مشبعا بالشحنة الإرادية. ولا نتصور كذلك أي حالة إرادية دون انفعال، والانفعال الذي يصحب الفعل الإرادي يظهر فيها نسميه الشعور بالأهمية، وأغلب الحالات الانفعالية المصاحبة الأفعال الإرادية تظل لا شعورية، وقد درس لوريا هذا الموضوع دراسة تجريبية، فأوحى إلى شخص منوّم تنويما مغناطيسيا بعض الحالات التي تثير انفعاله وتورثه اضطرابا في التوازن، نلاحظ أن الشخص بعد صحوه يشعر بالانفعالات الموحى إليه بها دون أن يعرف لها مصدراً.

وتظهر أهمية الانفعالات اللاشعورية في توجيه سلوك الفرد، وكثيرا ما تبدأ بعض الأفعال وينطلق النشاط الموجه إليها بتأثير انفعالات مكبوتة لا علم للشخص بها. وتظهر الحالات الانفعالية حين يحار الشخص أية طريق يسلك؟ وقد حاولت الوقوف على هذه الحالة بتجريبها في بعض الأشخاص بعد أن أنستها في نفسى غير مرة، وأهم طريق لإثارة الانفعال هو وضع الشخص في موقف يتطلب اختيار بين عناصر متشابهة، وكذلك

يثير كل اتجاه جديد قدراً من الانفعال. ونلاحظ أننا إن طلبنا من شخص تغيير اتجاهه المألوف بغتة أدركه اضطراب وانفعال.

وكذلك يظهر الانفعال، كلما أعجز الشخص موقف جديد، سواء أكان مصدره الطوارئ أم الأحداث الاجتماعية وإن الحدث الاجتماعي ليثير انفعالا قصير الأجل يسمى بالعاطفة. ويبدو أيضا أن النفور والكراهية لا يعتبران شعورا بالانفعال بمعناه العلمي ولكنهما شعور يخلفه الانفعال. نحاول أن نقنع غيرنا بقيمتنا وأن نسيطر عما نملك من وسائل فطرية ومكتسبة فتحدث هذه المحاولات انفعالات فإن منينا بالعجز والإخفاق غمرنا شعور الكره الذي يصحب انقطاع الانفعالي.

ولهذا يتجلى أثر الحب في طبع الناس وفي إيثار بعض الاتجاهات في السلوك، وليس للحب ميزة على سائر العلاقات بين الناس، والحب سواء أكان عشقا بين الجنسين أم علاقة بين الناس بعضهم ببعض فهو الأساس الذي يقوم عليه المجال الحيوي الاجتماعي، وينظم كل معاملات الناس في المجتمع. وإن كل شخص ليؤلمه أن يفقد ما كان يتمتع به من تقدير، وهذه الخسارة تورثه كبير اضطراب إذ يستشعر الإخفاق وتسقط مراقبته على أفعاله ويمنى بالحالة التي يسميها ألبرت Allport رد الفعل Reactivité وهى تقابل حالة النشاط الموجة التي تسمى بالفاعلية Activité .

وتنشأ أغلب الحالات المرضية النفسية من صدمات انفعالية. وقد بين ذلك ب. جانيه في كتابه حالات العصاب Les névroges إن كل

الحالات المرضية النفسية لتشترك في صفة واحدة وهي فقد الإرادة أو على الأقل اضطرابها، فيختل التوازن ويظهر هذا الاختلال أول ما يظهر في الناحية الفكرية إذ ينفك التسلسل المنطقي، ويظهر ما يسمى بالهذيان وبعد ذلك يختل التوازن الجسمي وتطيش الأفعال.

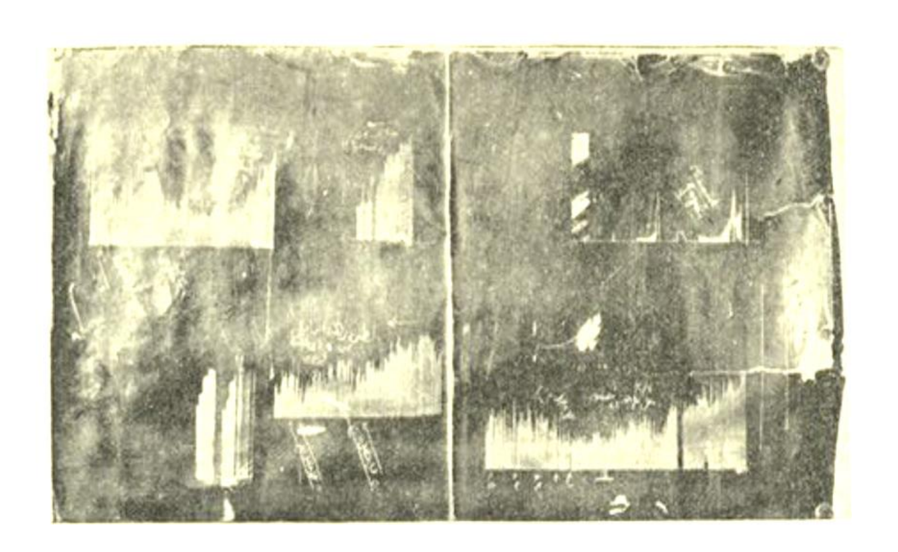
وليس في مكنتنا الجزم بأن هذا الاختلال في الفعل ناشئ عن مجرد الاختلال في الجسم فإن أغلب الحالات الجسمية تسلم في كثير من الأحيان. وقد وضح ذلك في حالة شاب في الخامس والثلاثين من عمره ربي تربية خاصة إذ تخرج في منزله على أيدي مدرسين خاصين به، وكان محاطا بكل عناية ولم تتح له فرصة الاختلاط بأترابه ثم ألحق بعد المدرسة الثانوية بكلية الحقوق الجامعية فنال درجة الليسانس وما هي إلا أشهر حتى اشترى سيارة شاركه فيها أحد أصدقائه فاتفقا على أن تكون السيارة دولة بينهما لكل منهما أسبوع يكون فيه مسئولا عنها. وهكذا كانت السيارة في عهدة الشاب يوما، ودخل إحدى دور السينما تاركا السيارة بالباب فاتفق أن مر صديقه فلمح السيارة وأدرك أن شريكه لا حاجة له بها قبل انتهاء العرض السينمائي، فرأى أن ينطلق بالسيارة بعض الوقت على أن يعود بها إلى دار السينما قبل موعد انصراف الشريك، ولكن الشاب خرج قبل النهاية بوقت، فلما افتقد السيارة أبلغ الشرطى وسرعان ما وجدها الشرطي إذ كان الصديق يدور بها قريبا من دار السينما. وإذ فاجأه الشرطى ظهر عليه الانفعال وعلى الرغم من سلامة العقبى شرع يعزف عن الطعام منذ غداة ذلك الحادث، وأدركه التلعثم في الكلام وتعطلت ذاكرته كل التعطل.

وهو الآن لا يذكر شيئا من العلوم، ولا يعرف من أسماء أصدقائه وأهله إلا اسم شريكه. ومن غريب أمره أنه مع سلامة جسمه لا يستطيع بذل أي مجهود منظم كما يتضح ذلك في المنحنى الذي حاولنا أخذه له بجهاز الإرجوجراف وقد لوحظ عليه أنه يقطع الأفعال حركات صغيرة سريعة كما هو الشأن في نطقه، وليس في مستطاعنا أن نجزم بسلامة الجسم كله فلا شك أن آثار الصدمة الانفعالية باقية في الأعصاب، ولذلك يعجز عن بذل المجهود الذهني، فأقل تركيز مستحيل. (رسم ١)

وهناك حالات من الأمراض العقلية مثل البارانويا تعترى الشخص مع سلامة جسمه. ومنشأ هذه الأمراض ما يلحق الأفعال النفسية الاجتماعية من الاضطراب، وإن كنا لا نجد في هذه الحالات فقدا للإرادة بأتم معنى الكلمة فقد تظهر أفعال مفاجئة تلائم بيئة الشخص ولا تساير شخصيته وماضي حياته، ولذلك تظهر هذه على نحو الأفعال الانفعالية وإن كانت موجهة منظمة تتطلب وقتا لتنفيذها، وهي دليل على اضطراب نفسي اجتماعي. وقد لوحظ ظهور البارانويا في كل الملابسات التي تحتم على الشخص الانفصال عن أعضاء مجاله الاجتماعي. وأثبتت الحربان العالميتان أن الأسرى المنعزلين في سجون خالية من يفهم لغتهم يصاب أغلبهم بالبارانويا. والغريب في هذه الحالة هو قوة الناحية المنطقية، وذلك لأنه يلجأ إلى الذهن للتعويض من ضيق المجال الاجتماعي.

وفي مستشفى الأمراض العقلية بالقاهرة حالات تستحق دراسة خاصة ومنها تفيد بوجه عام أن المريض بالبارانويا يظهر مرضه العقلي في

عجزه عن إدراك الشذوذ في الأفعال. وتبلغ هذه الحالة أشدها عند بعض المرضى كما تجلى ذلك في رجل ذبح ابنه في فناء الأزهر فلما سئل لم قتله أنكر بادئ ذي بدء ثم قال كأنما قد أفاق من غيبوبته: لست أدري لم ارتكبت هذا الجرم وكيف كان مني إني لم أشعر إلا بأن ذلك حدث مني في وقت مضى.



معمل علم النفس جامعة فؤاد الأول

ترى في الرسم المنسوب لكليان غزالي تقطع الخطوط التي تبين منحنى تعبه، ومقارنة هذا المنحنى بأنواع أخرى من المنحنيات السوية توضح الشذوذ عند الشاب المشار إليه في ص ٤٩ و ٥٠. ويرجع الاضطراب الجسمي الموضح في الرسم إلى الاضطراب النفسي والصدمة الانفعالية.

وكثير من أحوال الأمراض النفسية يظهر في نقص العاطفة والانفعال

فبعض الأشخاص لا يتأثرون لأي فرح ولا لأي ألم ولا يشاركون غيرهم من قرابتهم في فرح أو حزن، فهم لا يجدون ميلا ولا يشعرون بباعث إلى أي عمل من الأعمال، وأذكر حالة خاصة شاهدتها بنفسي: نشأ شاب نشأة فقيرة فعانى البؤس والجهد والحرمان من أية راحة ولذة واقتصرت ثقافته على بعض من الدراسة الابتدائية فلما قارب هذا الشاب سن الثلاثين ألفى نفسه حرا من كل قيد ووجد بين يديه مالا وافرا يتصرف فيه كما يشاء. ولكنه أحس الغربة بين أهله وشعر لهم ولكل ما حولهم من الأشياء بنوع من الفتور وأصبح يشكو آلاما واضحة مصدرها العجز عن مسايرة الحياة التي أقبلت عليه.

وحرص أهل هذا الشخص على أن يختار له زوجاً ومهدوا له كل الوسائل المادية لتحقيق أغراضه، غير أنه وقف متردداً ولا يستطيع البت في موضوع يطرح بين يديه، وقد اتسع تردده حتى شمل المألوف من الأفعال مما كان يقوم به من قبل خير قيام، وكان يشعر في أغلب أحيانه بتضارب الآراء الكثيرة في رأسه لا يدري من أين أتته، ولا يملك التمييز بينها بدقة، وكثيرا ما يعتريه الدوار والصداع فيعجز عن أي عمل. وكان دائما يدهش لموقف الناس من بعض الأشياء الفنية وتمتعهم بها ويلح في السؤال عن الدافع الذي يحبب الناس في الموسيقى والفن عامة.

وهذا على الرغم من أنه كان نزاعا إلى الاطلاع، بيد أنه لم يتأثر بقراءة ولا يستحسن إلا غرائب المواقف التي تثير الدهشة أكثر ما تبعث العاطفة.

وكان ما أصابه من ضعف الاهتمام سببا في فقر اتجاهات الفعل وتجدده، وقد حاولت أن أحل مشكلة بعث الانفعال أو بصفة أعم مشكلة التحكم في الانفعال. وقد أشار مور Moore إلى صلة الانفعال بالإرادة قائلا إن في حياتنا الانفعالية مجالا للضبط الإرادي، ولكن هذه الصلة غير مباشرة لأنها تكون بواسطة الانتباه، وهو الانتباه الإرادي. ولا نستطيع أن نزيد أو ننقص من شدة الانفعال بإرادتنا إلا إذا استعملنا واسطة أخرى مثل عامل تركيز الذهن في الموضوع الذي يمكن أن يثير فينا انفعالا معينا. ولكن الانتباه أو التركيز ليس إلا الإرادة، وهي أيضاً تكافل الجسم وتكامله، ونستطيع أن تثير انفعالا ما إذا حاولنا بالتصور أن نجعل الجسم في الموقف الذي يسمح له أن يثير ذلك الانفعال أو بعبارة أخرى لا نستطيع أن نحدث انفعالا إلا بأفعال.

ونستخلص من هذا كله أنه لا يمكن أن يكون هناك فعل إرادي يعوق شحنة انفعالية. وفي الطبيعة حالات نفسية متضاربة من دوافع ورغبات تؤدي في الغالب إلى الحركة والفعل الموجه. حين يكون هذا التضارب بين نزعات متقاربة في القوة لا يحدث الفعل ويشعر الشخص بقلق واستياء يؤديان إلى العجز عن التركيز والانتباه. وإن الحالات الانفعالية القوية لتؤدي إلى شلل الفعل وتزايل الاتجاه.

وهكذا نرى أن النزوع والانتباه والإرادة والانفعال والفعل كلها مترابطة متماسكة إذ لا يمكن الفصل بين ناحية وأخرى في الإنسان، فالتقسيم القديم للقوى الإنسانية إلى ملكات تقسيم خيالي لا يعبر عن الحقيقة الواقعة.

وتفسح لنا النظرة التكاملية لموضوع الفعل الإرادي مجالات واسعة وآفاقا بعيدة في النواحي التطبيقية من الأوضاع التربوية والصناعية والطبية وذلك لأن النظرة التي تعالجها الآن من الربط بين الناحية الذهنية والناحية الجسمية لفهم شكل الفعل الإرادي وأساس الاتجاه تجعلنا في حاجة إلى فهم وظيفة مهمة في حياة الإنسان وهي الضبط.

# الفصل العاشر

# عوامل الضبط الجسمية

إذا قام التقابل بين الفعل والانفعال على درجة الاتجاه والتكيف الموجودة في الأول المفقودة في الآخر كان الفرق بين الفعل والانفعال راجعاً إلى أساس واحد هو الضبط. نلاحظ في كلام الناس استعمال جملة ضبط النفس أو ضبط العواطف ليعبروا عن بذل النشاط لتوجيه الأفعال وتجنيها الانفعال المتمّيز باضطراب التوازن العام للنشاط الجسمي وانعدام التكيف بين الجسم والبيئة الطبيعية والاجتماعية، ومبلغ نجاح الشخص في الحياة موقوف على مقدرته على الضبط وإنه لعملية معقدة لا تتجلى طبيعتها إلا إذا وقفنا على العوامل الجسمية والنفسية والاجتماعية.

لقد تقدم بحث مفصل في الأسس البيولوجية للفعل الإرادي. وقد خرج لنا من ذلك البحث أن التركيز الذهني يقوم على أسس تشريحية تركيبية للجهاز العصبي غير أن ذلك لا يكفي للوصول إلى حقيقة الوظيفة الإرادية في الفعل؛ فثمة فرق شاسع بين شخص وشخص في براعة القيام بفعل دقيق كاستعمال الآلة الكاتبة مع تشابه الشخصين على العموم من الناحية الفسيولوجية. وقد يتسع التفاوت بين الشخصين فلا يملك الرجل العادي في تفسير ذلك إلا أن يقول إن الأول متمرن والآخر لا مرانة له. وسمى مور Moore هذا الأساس للفعل الإرادي الوحدات الحركية Kinetic

Units وتنحصر في الوقوف على ذلك القدر من الترابط الذي يرجع إلى الوراثة والقدر الذي يرجع إلى الاكتساب وبين الباحثين في هذا الموضوع كبير اختلاف.

تولى "واطسن" وتلميذته مرجاريت جراى بلانطن M.G. Blantion ملاحظة الأطفال أثر الولادة، فتبين لهما إن الطفل يؤدي حركات موحدة في شكل معين موجهة وجهة خاصة. ولا تقوم هذه الحركات على المحاولة والخطأ بل هي فجائية كأنها فطرية خلافا لما ذهب إليه بعض الباحثين من أن الترابط بين حركتي المقلتين لا يتم عند الأطفال إلا بعد وقت طويل. تبين واطسن وتلميذته "بلانطن" أن كثيرا من الأطفال يحدقون بالعين في النور تحديقا تاما، وقد يتبعان حركة ما بكلتا العينين.

وقبض اليد، حين يؤدي به الوليد، يتطلب تآزرا بين عدة حركات واشتراك أعضاء كثيرة في وحدة حركية؛ فالأصابع كلها تتجمع وتنفك في الوقت نفسه، وإذا كانت الحركات المترابطة عند الطفل قليلة فإنها لا تقتصر على ما ذكر، وأهم ترابط طفلي هو ما بين حركة العينين واليد والفم.

ويقتضي هذا الترابط شيئا من التمرين غير أن الطفل يتجه من تلقاء نفسه إلى اكتساب هذه الحركات، ولا شك أن الحاجة هي التي توجه الطفل، وتؤازر التركيب الفسيولوجي وانتشار مادة الميلين باعتبارها غشاء الأعصاب، وذلك تحقيقا للحاجات بتوجيه الحركة وجهة الخارج، ويجلو

ذلك التركيب أغلب الحركات العامة في الإنسان. تلك الحركات التي تتطلب ترابطا عند النضج الفسيولوجي الضروري كحركة المشي فإنها ليست قائمة على أساس التمرين كما يظن، وإنما هي متوقفة أولا على النضج الفسيولوجي حتى أن بعض الأطفال المحرومين من حركة المشي في إبانه يسرعون في مشيهم حين تتاح لهم فرصة القيام بهذه الحركة

ومن جهة أخرى لاحظ أرنولد جزيل Arnold Gesell حركة التفات الرأس وصلتها بحركة اليد في البسط والقبض. وقد سميت هذه الحركة المركبة بتوتر الرقبةTonic - neck - reflex وشاهد جزيل أن هذه الحركة تسيطر في الإثنى عشر أسبوع الأولى من حياة الطفل (٩). ولا دخل في هذا للتمرين والتعليم، وإن كان الطفل الوليد في الخمسة عشر أسبوعا الأولى يكثر من تحريك رأسه ويديه، ومن التصفيق والتلفت ويبدو أن كل قصارى جهد الطفل يتجه إلى وضع الرأس وضعا مستقيما بالنسبة للجسم.

وإن ذلك التحريك لهو أول محاولة معقدة لتركيب حركات جسمية مهمتها اكتشاف توازن الجسم، تؤثر حركة توتر الرقبة المنعكسة في عضلات جذع الجسم. ويستطيع الطفل بفضل هذه الحركة أن يجلس ويتكيف بالبيئة في يسر فيتسنى له أن يدرك ما حوله بحركة الرأس الملتفت يمنة ويسرة، ولذلك يجب تقدير ملاحظة جزيل وهي خير شرح يوضح لنا كيف يستطيع سلوك خاص مثل ضبط الرأس Head control أن يكون

---

(٩) Arnold Gesell The first five Years of Lifes p. 3

له تأثير مزدوج أحدهما في مجال الحركة والآخر في مجال التكيف، وبهذا تتجلى لنا طريقة تكون الضبط في الحركة بالترابط بين الأعضاء.

ويقدم لنا أندري أمبريدان بحثاً جليلا في هذا الموضوع تحت عنوان " الاتزان والاتجاه ( L , quicibre et 1 orientation) [١٠] وحاولت أن أجد علاقة بين النشاط الذهني الإرادي والنشاط الجسمي الذي يقوم التوازن. وتعرضت لمشكلة الصلة بين التكيف والذكاء وفرضت أن الشخص يولد مسلحاً بقوة تُساعده على التكيف دون أي تمرين مخالفاً بهذا مذهب السلوكيين الذين يقدمون التركيب الجسمي والسلوك العضلي الفسيولوجي على الاستعداد الذاتي الفطري الموجه للسلوك.

وقد ذهب هذا المذهب ب. جانيه وكلاباريد. حتى أن ثانيهما رمي بالإسراف في القول بمذهب الغائية وفي القول بوجوب هذا الاستعداد النظري الذي يقوم على اتجاه الحركة ويجوز أن يقال إن الطفل يكتشف طاقاته متوجهاً إلى ذلك بالنضج الجسمي من جهة وبمنبهات البيئة من جهة أخرى ووفقا لملاحظة أثر التوازن في التوافق بين الحركات يمكن إرجاع التكامل الجسمي إلى عمليتي الاتزان والتوافق. يشهد بذلك عون الاتزان عامة والبصر خاصة على إدراك المجال. وقد رأى هذا الرأي إليوت سميث في اعتباره البصر أساس النشاط الذهني، وأحدث الاتجاه المزدوج للمقلتين انقلابا في تاريخ سلوك الحيوان. وإن وظيفة الانتباه لتقوم على عملية هذا

---

G. Dumas Tome 3 André Ombrédane P. 23.(١٠)

الاتجاه البصري وبذلك تظهر علاقة الانتباه بالتكامل الجسمي لا في الحالة التشريحية الداخلية حسب بل في الحالة الوضعية الاتزانية أيضاً.

يقرر أندري أمبردان نحو هذا حين يقول "يبدو أن أهمية النشاط الدماغ عند الإنسان أعني النشاط الإرادي والنشاط المكتسب بالعادة مرتبطة بأقل تطور لأنواع النشاط الانعكاسية الخاصة بالاتزان، لذلك كانت مدة التعود التي يتطلبها الإنسان أطول مما يتطلبها الحيوان".

وتظهر صلة الإدراك البصري بالحاسيات الأخرى وخصوصاً حاسية الاتزان والحاسية الدفينة في علامة رمبرج ( Signe De Romberg ) حيث يعجز المصاب بمرض التابس (Tabes) من الوقوف حين يفحص عينيه. ولذلك يقرر أندري أمبردان أن للتنبيهات الحسية وخصوصاً البصرية دخلا كبيرا في التوجيه الإرادي لأجزاء الأعضاء وفي ربط بعضها ببعض وفي الفكرة التي تكونها عن اتجاهنا العام في المكان [١١].

وهو يقرر أيضا حقيقة كبيرة الأثر في هذا البحث تلك هي ما للحاسبات الموصلة بالخارج والطرق الموصلة بداخل الجسم من أثر في إحداث الاستجابات الخاصة بالمثول. ويرى أيضا أن كل هذه الاستجابات تلخص الاتزان الإرادي والاتزان العادي، ولهذا التقرير أهمية كبرى فيما يخص شرح الاتزان والاتجاه.

---

(١١) G. Dumas André Ombrédane P 29.

وتوضح العوامل الجسمية للضبط في الفعل الإرادي ملاحظة أمبردان على المصابين بإصابات جراحية في الدماغ إذ رأى أن بعض الإصابات الدماغية يحدث اضطرابا كبيرا في الاتزان فيعجز الشخص عن المثول المألوف ويضطر المريض إلى توسيع انفراج قدميه كما يتعذر عليه الميل إلى الخلف لعجز الشخص عن التوازن فيقاوم ثقل جسمه بتثبيت قدميه. وفي حالة المشي لا يساير الجسم القدمين بل يتأخر عنهما. وذلك يحدث اضطراب المثول وتقطع المشي. يتحسس الشخص الأرض برجليه قبل أن يتلمسها. وأهم ظاهرة هي تجزئة المريض لأفعاله المعقدة وظاهرة التفكك الواضح بين مراحل الفعل حتى يفقد الفعل شكله. ويتجاوز كل جزء من أجزاء الحركة حده Hypermetrie وتتضح هذه الحالة جليا إلى حد الخطورة في الأمراض النفسية المعروفة بالعصاب الانفعالي Néveose émotive وهي التي تمتاز عن الهستريا والتعب العصبي والتعب النفسي بالفرق الشاسع بين الفعل ورد الفعل الانفعالى Réaction émotive وذلك يسلم المريض إلى عجز عن القيام الأفعال الإرادية وتنتظمه رعدة تفقد الترابط الذي هو أساس وحدة الفعل وينتج عن ذلك كله الخلل الحركي في الاتجاه(١٢)

(١٢) P Cossa Physiopathologie du système nérveux ch1V. F. 614.

# الفصل الحادي عشر

# عوامل الضبط النفسية

وبالرجوع إلى أمراض الحركة الإرادية تتضح طبيعة الضبط، واختلف البحاث في شرح بعض الظواهر المرضية للحركة. يوازان كاسيريه Cassirier بين الحبسة Aphasie وبين أي فقد للحركة. ويرى أن ظاهرة وجود تعطل الحركة في ناحية واحدة من الجسم دليل على أن عامل الاضطراب يتعدى الحس إلى النفس.

ويميز مور Moore بين الفعل الإرادي voluntary action وفعل الإرادة act of will . فالأول وليد فعل الإرادة، وهو تعبيره في الخارج وأداته العملية النفسية التي توجه الفعل وتعين شكله. يعول مور في تمييزه الآنف الذكر على محاولة في دراسة زمن العزم الذي يمكن أن يحد، وإن بلغ غاية القصر.

وقد بنى وليم جيمز شرحه لفعل الإرادة على العنصرين النفسيين الأول الصور الحسية العضلية (Kinesthetic image ) والآخر فكرة الحركة The idea of movement الميالة دائما إلى الظهور بمظهر الفعل، ولكن مور أنكر العنصر الأول وسلم بالعنصر الآخر لأنه حقيقة مطلقة تنطبق على كل فكرة، ولا يكون جيمز إذن قد أتى بأي تجديد، على

أن مور يرى أن ميل الأفكار إلى الظهور في مظهر الحركة أصبح مؤكدا عند أغلب علماء النفس.

وإذا وازنا بين هذا الرأي لوليم جيمز وبين مذهبه في الانفعال تبين منا تناقضه، لأن الأفكار نفسها وهي حالات شعورية تلدها الرغائب والميول وتقوم على ما يعتري الجسم من تغيرات. وكذلك يرى جيمز أن الانفعال النفسي صدى لاضطراب التوازن الجسمي، ومن ثم يتجلى لنا الصدق في قول ب . جانيه: ويحمل الرأي أن الأفكار تتضمن أفعالا وميولا تسفر عنها أفعال أخرى، وعلى علم النفس أن يبدأ بدراسة هذه الميول لا باعتبارها نتيجة ولكن باعتبارها مصدرا لكل الأفكار والآراء"

وإذا ضربنا صفحا عن هذه الاعتبارات النظرية كلها متجهين إلى الواقع متتبعين أفعالا إنسانية في السلوك العام وقفنا على حقائق ربما قد تنافي هذا البحث. يخلو بعض المصابين بالمانيا إلى الهدوء ويستسلمون أتم استسلام ولا يشغلون أنفسهم إلا بأعمال هينة وإذا فتح عليهم الباب وفاجأهم شخص فإذا به يراهم قد نهضوا مرة واحدة واقفين، أصواتهم مرتفعة، وحركاتهم متباينة معبرين عن رغبات واضحة. وترمي أفعالهم إلى غرض محدد ولكن هذه الأصوات والأفعال لا تلبث أن تشتد حتى تعقد معناها ومرماها وتصير صرخات مبهمة الحركات طائشة، وقد تنتظم بعد ذلك الأصوات والحركات وتنقلب فتتخذ صورة إيقاع وينتقل المريض من لحن إلى لحن ومن رقصة إلى أخرى.

هناك إذن استعداد جسمي لأفعال كامنة، إذا أثارها منبه حسى؛ كرؤية شخص غريب لم تملك تلك الأفعال أن تتجه بارتباطها بهذا المنبه إلى غرض معين لأن المريض يفقد الفكرة الموجهة للأفعال وتنفصل الفكرة عن الحركات أوضح انفصال وينعدم الضبط. ويعتبر الشخص مصابا بضعف إرادي إذا انقاد إلى سلطان العادات الحركية المكتسبة، لذلك ينتهي الأمر بالمريض إلى الرقص وتنظيم الحركات في إيقاع.

يتوجه الفعل وجهة واحدة ملبياً الرغبة في تنفيذ فعل إرادي لا يكلف الشخص عبثاً في تجديد التوجيه.

وتظهر هذه الحالة عينها في كثير من الأطفال إذ ينتقلون أحياناً من حركة إلى أخرى، ويقضي بهم الأمر أخيراً إلى إيقاع يعجز فيه الطفل عن توجيه حركاته وجهة جديدة، فيطاوع الانسياق الجسمي وتتقاصر مدة فعل الإرادة حتى تقارب الانعدام.

ويرى جورفتش Gourwitch أن حركات الطفل لا تهبط بالترابط إلا نحو السنة السادسة، وهو يصل بين الترابط وبين تطور العمليات الجبهية (١٣) ولما كان هذا التطور يتم تمامه في سن المراهقة فإن الحركات تسير إلى الدقة والتحسن حتى تلك السن. وثمت حالات شاذة يتم فيها التطور

---

(١٣) M. Gourwitch - Le développement moteur et mental chez l, enfant XI : Congrés international de psychologie P. 93 - 102 Paris 1931 imprimerie Moderne 1938.

الذهني فيتوقد الذكاء على الرغم من ضعف الحركة وتشتت أشكال الأفعال. ويرى جولدشتين ذلك راجعا إلى نقص في التمرين على توافر الاستعداد الفسيولوجي.

ودرس هنرى فالون Henri Wallon في المؤتمر الدولي الحادي عشر العلم النفس موضوع التطور الذهني والحركي عند الطفل. وانتهى من البحث عن أساس هذا التطور وصلة الحركة بالذهن إلى استعصاء كل هذه المشكلة على الحل في الوقت الحاضر، وأبى أن يقر تقدم التطور الذهني على التطور الحركي أو العكس، لأنه لا سبيل إلى العلم بحقيقة التطور الذهني لدى الطفل باعتباره وظيفة عضوية هي ضرب من الحركة مجهول بتاتاً، على أن هذه الوظيفة الوضعية الجامعة بين الحركة والذهن تكشف وجه الصلة بين العمليات الذهنية والأفعال الإرادية. وتتضح بهذا أهمية موضوع الصلة بين الاتزان والاتجاه، وقد أثبت ذلك في رسالتي الانتباه الإرادي غير أني فيما تقدم شرحت هذه الصلة لفهم أسس الانتباه العامة وأعترف بوقوفي أمام المشكلة موقف العجز مكتفياً بإثبات الصلة بين الاتزان والانتباه وهو أساس العمليات النفسية عامة والإرادية خاصة.

وفي نظرتنا لعوامل الانتباه لاحظنا قيمة التوازن الجسمي الاجتماعي الطبيعي. وإن صلة العوامل الذهنية بالعوامل الجسمية وعناصر الضبط النفسية وتأثيرها في الأفعال لا يمكنها أن تفهم بالرجوع إلى فكرة التوازن العضوي الداخلي فقط. وقد تعرض الدكتور يوسف مراد لهذا الموضوع وتعمق في البحث عن أقصى العناصر وحاول أن يفيد من الدراسة الجنينية

والمنهج التطوري ولكنه يرى في الوقت نفسه أن المنهج الذي يقتضى تركيب النشاط النفسي يبدأ من العناصر كالإحساسات المتفردة وسلاسل الانعكاسات وليس بالمنهج الكافي إن لم يكن غير قوي (١٤).

وإذا تأملنا موقفه في بحثه موضوع ظهور الذكاء باعتباره عاملا منظماً للسلوك ألفيناه يجمع بين رأي جولدشتين ورأى بيير جانيه فهو ينظر إلى النشاط النفسي في مختلف مراحل التطور ولكنه دائماً يراعي السلوك العام الكامن في كل مختلف المراحل غير لاجيء إلى التجزئة. وهو يشير إلى النقطة المهمة متى عزبت عن المدارس التجريبية في علم النفس متتبعاً في شأنها الحيوان إذ يقول: "إن الحيوان لا يستجيب للمنبهات وحدها منعزلة حين يجردها المجرب مراراً عن الموقف الكلي عامداً أو غير عامد".

وضرب لنا مثلين إذ وازن بين موقفين لقط حبيس غرفة مقفلة يرغب في الانطلاق، فهو يضرب برأسه الباب ليجذبه تارة ويدفعه تارة أخرى. فإذا أخفقت محاولاته اتجه إلى شخص في الحجرة وجعل يموء رقيق الصوت بغية الاستعطاف وراح يتمسح بجسم الشخص لين الحركات رامياً جهد إمكانه إلى أن يسترعي نظر الشخص ليعينه على الإفلات من محبسه. وفي هذا نرى ترابطا عجيباً بين الحركات يدل على أن الحيوان موجه بفكرة تقوم على فهم الموقف وعجزه عن فتح الباب ومعرفة الفرق بين قدرته وقدرة الشخص وإلا لما استعطفه واستعان به. ولا شك في أن هذا الإدراك قائم على ملاحظاته السابقة إذ رأى هذا الشخص يفتح الباب غير مرة وأدرك

---

(١٤) Youssef Mourad. L'éveil de l'intelligence P.61 Alacn 1939.

في هذه اللحظة أنه عاجز عن القيام بذلك العمل. وفوق ذلك كله يسلك الحيوان طريق اللين وإظهار الضعف. ويتغير سلوكه إذا احتبس في قفص صغير لا يستطيع أن يقوم فيه بأية حركة كأنه يلجأ في هذه الحال إلى الشدة والقوة ويبدو كل نشاطه بعنف، ويظهر انفعال الغضب وتضطرب الأفعال وينفخ نفخة شديدة معبرة عن تبرمه.

وإذا تعمقنا في الموازنة بين السلوكين تبين أن للحيوان سلوكا نزوعياً موجهاً يقتضي تكييف الأفعال حسب الموقف، فلا شك أن ما ظهر من أفعال القوة والضغط والعنف التي ظهرت في القفص كان ممكناً أن يظهر في محاولة فتح باب الحجرة. ولكن ذلك لم يظهر، فحدث نوع من الضبط إذ كان للحيوان مكنة أخرى. وإذن فقد أثرت البيئة أبين التأثير في سلوك الحيوان.

ولا يمكن إذن إرجاع الضبط إلى العوامل الفسيولوجية الجسمية وحدها كما فعل جولدشتين وجورفتش. ولا بد من ضم فكرة المجال وذلك يتضح باختلاف سلوك الحيوان بحسب اختلاف المجال. وليس بمستطاع أن نتناول النشاط النفسي بالحديث إلا إذا راعينا الطرفين، التركيب الجسمي والتركيب الجغرافي الطبيعي.

يتوقف الضبط على هذين العاملين، ويحاول النشاط أن يربط بين المجالين كما هو الشأن في الانتباه الإرادي. ونطلق على النوعين اسم النشاط النفسي الذي يتجلى واضحا في الضبط والانتباه الإرادي والفعل

الإرادي.

يسار هذا الفهم للضبط كل مراحل الحيوانات لاستناده إلى التركيب الجسمي والبيئة. ويؤيد موقفنا هذا ما ذكره الدكتور يوسف مراد في محاولة شرحه سلوك عقارب الماء حين يتهدده الخطر، إذا كان الاعتقاد الساذج أن استجابة الحيوان انعكاسية محضة.

وقد قال بهذا الرأي فردريك (١٨٨٩) Fréderic وجفينا (١٩٠٧) وبوهن (١٩٠٧) Bohn ، واعترض الدكتور يوسف مراد على هذا التعليل البسيط وعارضه برأى بيرون Piéron حين قال بوجود استقلال جزء أو الجزئية الذاتية Autotomie وتحدث عقب تنبيه شديد من تأثير الكتلة العقدية الباطنية وتأثير جزء مستقل منعكس. ولكن هذا السلوك لا يفيد الحيوان غير الوقاية السلبية. بيد أن للحيوان سلوكا إيجابيا يساعده على البحث. فهو يلجأ إليه دون تردد عند الخطر . وفي هذه الحالة المعقدة التي لاحظها بيرون وسماها Grapsius Varius نرى الحيوان يتمكن من تركيز النشاط في ناحية من جسمه ويشعر أنها تنبهت تنبيها قد يكون خفيفا ويرجع هذا النشاط إلى العقد المخية وهو نشاط نفسي لما فيه من ضبط تحدث أفعالا موجهة.

يتوضح لنا في هذه الحالة ما هو الضبط وعلى أي أساس يقوم، لأن هذه الحالة أبسط الحالات التي يمكننا أن ندرس الضبط فيها، فيشاهد فرقا كبيرة بين نوعين من السلوك في حيوان واحد. والخلاف راجع إلى الفرق في

الملابسات وفي التركيب الجسمي الذي يستدعيه التنبيه. يستعمل الحيوان الإدراك والانفعال في السلوك الذي سميناه نفسياً، وهو يمتاز باستمرار النشاط مدة قد تطول إلى أن يدرك الحيوان غايتها وهذا الانتظار هو تركيز النشاط في ناحية ما مدة من الزمن ومنعه عن الاتجاه إلى النواحي الأخرى التي يمكنه أن يسير فيها. والعامل الجسمي ليس بكاف وحده لإظهار النشاط النفسي، وإن كنا نلمس ضرورته على أن بعض البحاث يقتصرون في شرح بعض الظواهر النفسية العالية ناسين أنهم يستعملون الوظائف الفسيولوجية النفسية في تضاعيف حديثهم عن العامل الجسمي الذي يحدثها. ولعل أبلغ عبارة على شمولها في شرح ضرورة التكامل الفهم النشاط الإرادي هي عبارة الدكتور مراد إذ يقول: "يقوم عمل القشرة على عمل المخيخ ليتم النشاط الإرادي، ويحدث نشاط القشرة، حتى في ميدان العمليات الذهنية العالية، قوة هي تنظيم وتمثيل بغض النظر عما تحدثه منطقة الانفعال الطبيعي من تأثير في التفكير.

ونستخلص من هذا كله تعزيز قيام الضبط على شرطين مهمين: التركيب الجسمي والمجال الطبيعي الاجتماعي. وقد حاولت في فصول سوالف شرح صلة النشاط الإرادي بالتركيب الجسمي وصلته بالمجال الحيوي العام. ومن ثم يتسنى لنا أن نتناول بالنقد آراء الدكتور يوسف مراد في أهمية التمرين. لا ريب أن المواقف الجديدة تحدث انفعالا وتؤثر في التوجيه، وأن التمرين ينظم الحركات، ويعين شكلها الملائم للبيئة والاستعداد الشخصي؛ فالموقف الجديد يهدي الشخص أول وهلة إلى الاتجاه الذي ينبغي أن يتوجه إليه تحركاته، وإن ما يقع بعد ذلك ينشأ في

أغلب الأحيان من الكفاح بين الجسم والبيئة حتى يتم التكيف الجديد.

ولذلك نري ليفن Lewin يعتبر المجال عنصرا أساسيا للضبط، فيقرن دين مجال الفعل وعملية ضبط الفعل لتفهم الأسس التي يقوم عليها الفعل الإرادي، فكلاهما يؤدي إلى حدوث فعل يمكننا أن نصفه بالإرادي، ولكن ليفن من جهة أخرى يفرق بينهما من حيث أن كلا منهما يرجع إلى أساس خاص من أسس تكامل النفس. فهناك بعض الأفعال الإرادية ناشئة عن المجال الطبيعي أو المجال الحيوي. وهناك أفعال إرادية ناشئة عن القوة الذاتية، وهذه هي التي يسميها ليفن بالأفعال المضبوطة وإن كان يضع هذا الاسم في الوقت نفسه للأفعال الموجهة بتأثير المجالين الطبيعي والحيوي.

ولكن ليفن يقف موقفا غريبا في تطبيق هذه الفكرة فنراه يهتم كثيرا بالتسمية ليعلل ما يسميه العامة إراديا ومالا يسمونه بالإرادي، وبجانب ذلك يوسع معنى الضبط ويطبقه على أفعال مختلفة متباعدة الشكل. ويكاد يعزو الضبط لكل الأفعال التي يقوم عليها سلوك الحيوان، فلو أنه اعتبر الفعل ضمن السلوك المؤدي لوظيفة بغض النظر عن صورته الخارجية من سرعة وشدة وأنه يقوم على شيء من الضبط الذاتي أو الخارجي لكان رأيه أدنى إلى المنطق وموقفه أقرب إلى الفهم.

نراه يعتبر أفعال الكلب الجائع المندفع شرها إلى اللحم أفعالا مندرجة تحت ضبط الأنا. ويعتبر أفعال الرجل الفار من المنزل المحترق أفعالا خاضعة الضبط المجال، ولا يسمى فعلا مضبوطا فعل الرجل الذي يدخل

المنزل المحترق ليخرج غطاء رأس ممزق [١٥].

ويرى كوفكا أن ليفن يستند في تمييزه بين الأفعال المضبوطة وغير المضبوطة إلى ناحية تنظيم القوة الصادرة عن الذات أو اللا ذات، ونجد ليفن قد عقد شرحه بإدخال التقسيمات بعضها في بعض حتى لا يتعذر أن نستخلص رأيه واضحا في المشكلة التي نحن بصدد بحثها فلا نراه يصرح بموقفه في أسس الضبط ولا نراه يستخرج فكرة التوازن التي قال بها في بحث الإرادة والحاجات [١٦].

يرى هو في هذا المقال أن الانتقال من حالة هدوء إلى حالة فاعلية، وذلك بتغير المنبهات، إنما يحدث حين يختل التوازن المنظم وينتج عن ذلك اتجاه جديد إلى توازن جديد. ويضيف ليفن أن هذه الملاحظة لا تنطبق إلا على النظام باعتباره كلا. وأنه لا يمكن لأي جزء أن يتجه عكس الاتجاه العام للجسم. ومن السهولة التعمق في فهم هذه الملاحظة وتوسيعها للوصول إلى فهم أساس الضبط فهما واضحا لا تعقيد فيه. وفكرة التكامل الجسمي التي قال بها لا تغني وحدها فلم يكن بد من مراعاة النواحي النفسية الاجتماعية متكاملة. ولكن ليفن حاول أن يقفنا عن حالات من الضبط وأن يشرح أساس كل حالة منها. ويسعى كثيرا من الأفعال الاندفاعية أفعالا مضبوطة للبيئة أو للأنا. وأقام فروقا بين المجالات التي تؤثر في الإنسان.

---

(١٥) K. Koffra . Principles of Gestalt Psychology p. 419 Ellis.

(١٦) نفس المرجع ٢٩٠

وكذلك لم ينته ليفن إلى رأي واضح في طبيعة الضبط مع أنه بين في مقاله "الإرادة والحاجات": أثر منهج الضبط في توجيه التربية وفهم الإرادة والسلوك عامة، وإنه ليثير العجب أن نجد ليفن، بعد تعويدنا أن نعزو السلوك الخاضع للضبط الأفعال المضبوطة، يتحدث عن السلوك الاندفاعي ويشير فيه إلى السلوك الخاضع إلى القوة الخارجة عن نطاق الضبط.

ويرجع الغموض في موقف ليفن من الضبط إلى فهمه الأنا القائم على العوامل الجسمية من الحاجات والعوامل الخارجية من المجال. وأما الناحية النفسية البحتة فقد كان نصيبها الإغفال. ويظهر الخطر في موقف القائلين بنظرية الشكل (الجشطلت) من إنكارهم للنشاط النفسي عامة والانتباه خاصة.

ويميل سبيرمان من ناحية أخرى إلى جعل الضبط نفسيا محضا ويسميه الضبط الإرادي محاولا أن يبتعد عن فكرة الضبط باعتباره نزوعا.

وصل سبيرمان إلى هذه الفكرة بالتأمل، وحاول التمييز بين نوعين من الضبط: الأول الضبط الإرادي والآخر الضبط النزوعي. وكأن هذا النوع الآخر غير إرادي. وإذن فكأنه يقول بوجود ضبط لا يخضع للإرادة. وهذا التقسيم الاختياري قريب من تقسيمات ليفن. ولست أدري كيف يمكن تمييز فكرة الضبط عن النشاط النفسي الذي يتجلى في الوظائف الإرادية وأن هذه الاتجاهات كلها لا تميل إلى القول بفكرة القوة المنفصلة في علم

النفس. في هذه الأفكار ما يباعد بيننا وبين اعتبار علم النفس لا يقوم على نشاط نفسي موحد مختلف المظاهر والدرجات. ولا شك أن كل هذه المواقف في دراسة الضبط من الناحية النفسية قد أغفلت ما يصل بنا إلى اعتبار العوامل الاجتماعية التي تتمثل أول ما تتمثل في النظام الاجتماعي.

## الفصل الثاني عشر

# عوامل الضبط الاجتماعية

كان ظهور اللغة، وهي أساس التكون النفسي، في صورة الأمر، فالمجتمع يخلق كثيراً من الرغبات ومن المثل، ويؤثر تأثيراً كبيراً في الاهتمام. وكذلك للعقيدة أثر في ظهور الضبط، حتى إن وظيفة المجتمع النفسية لتكاد تقوم على كبت ميول الفرد. وقد اتخذت لتحقيق هذا الغرض طرقا شتى، منها سن القوانين بمختلف أنواعها، ومن بينها القوانين الأخلاقية والعرفية والقضائية.

وهذا البحث عن وظيفة المجتمع النفسية يشع ضوء على فكرة الضبط وذلك ينتهي بنا إلى فهم أساس الأفعال الاجتماعية من الناحية النفسية وتقفنا على الآثار الاجتماعية في الفعل الإرادي.

وغايتنا الوصول إلى توضيح بواعث الفعل؛ لتحمل الأفراد والجماعات على إتيان الأفعال المفيدة المسماة بالعمل، ولتجنب هؤلاء وهؤلاء الأفعال الضارة المسماة بالجرائم والحماقات، ونستطيع أن نفيد من هذا البحث بالوقوف على الحدود التي تفصل بين القصد وعدم القصد، ويتبع ذلك التميز النفسي بين المسئولية وعدم المسئولية. ويؤدي بنا ذلك إلى معرفة حدود الضبط النفسية الاجتماعية.

ذكر برجسون أن للمجتمع سلاحا قوياً وهو الضحك يحاول به أن يأخذ الفرد بسلوك معين، فالضحك يجعل كل شخص يتبع طريقاً خاصة يؤدي به إلى التكيف في بيئته، يأبى الشخص أن يرتدي ثياباً غريبة عن ثياب المجتمع، ويأبى أن يتحدث أو أن يمشي على نحو غير مألوف.

والمجتمع يناضل عن نفسه إذ يضحك أفراده من شخص لا يستطيع التكيف في بيئته الطبيعية كاصطدام الشخص الكبير البالغ بحجر في الطريق، وكان ميسوراً له أن يتجنبه أو أن يتخطاه. ونحن لا نضحك من هذا الاصطدام إن حدث من ذي عجز وذلك لأننا نتوقع من كل شخص أفعالا تلائم مجاله.

وبين برجسون أن الضحك التهكمي يحارب الركود والذهول، لأنهما يعوقان اتصال الأفراد وانسجامهم في مجتمع متحد، وللضحك أثر كبير في تهذيب العادات والأخلاق وفي ضبط بعض الأفعال وفي الحد من حرية السلوك.

ونلاحظ من جهة أخرى أن المجتمع يؤثر في الضبط تأثيراً سلبياً؛ فالشخص بين الجمهور يفقد ضبطه العادي الراجع إلى ذاته أو إلى المجتمع. وقد يسمح المجتمع بالتحلل من بعض القيود فتنطلق الأفعال العاطفية غير الموجهة. ونرى أن اندماج الشخص في الجمهور يؤثر تأثيراً بينا في ضبطه. وقيل إن الجمهور ينحدر إلى أدنى مستوى إذا كانت أفعال أفراده غير موجهة ولا مضبوطة. وثمت أنواع من المجتمعات تختلف باختلاف درجة

الضبط في أفعال أفرادها، وأول نقطة تسترعي النظر في الاتحاد والافتراق وقد يؤدي أفراد مجتمع واحد فعلا واحدة في وقت واحد معا. وقد يقوم أفراد مجتمع بأفعال مختلفة ترمي إلى التآزر والتكامل.

ونظرة إلى ما لاحظه ليفى بريل Lévy Bruhl في الشعوب البدائية من تآزر دائم تبين لنا أن الارتباط بين الفرد والجماعة قد يصل إلى تنظيم كل الأفعال حتى الضرورية العادية كما هو الشأن في قبيلة البساتوس Bassatos إذ لا يبلغ الشخص درجة الاستقلال في أفعاله وإن كبر، ويظل منقاداً إلى سلطان الأسرة فيما يأخذ وفيما يدع.

ويعتبر الشخص في هذه الحالات جزءًا من الكل مصيره مصير الكل ولذلك لاحظ ليفي بريل بحق (١٧) أن أخطاء كبيرة ارتكبها المبشرون الذين أقاموا دعوتهم على أساس أن الفرد مسئول عن أفعاله. وأخفقت محاولتهم لدفع الفرد إلى تغيير سلوكه والتبديل في عقائده باعتباره فرداً مسئولا بنفسه. ففكرة المسئولية الفردية لم يكن لها أساس عند كثير من القبائل، لذلك لم يكن لفكرة الجزاء في يوم آخر وعالم آخر أي تأثير في الدعوة والتبشير. وتركز القبيلة في أغلب الأحيان إرادتها حول شخص سيد تنمحي فيه كل إرادات الأفراد وتتعلق مصائر كل الأفراد بمصير هذا السيد سواء أكان ذلك من ناحية العقائد أم من ناحية الأفعال. يخضع الضبط لضرب من الشعور كالهالة تحيط بالفرد، وهذا الشعور الواسع الذي سماه

---

(١٧) Lévy-Brühl. La Mentalité Primitive Paris. Alcan 1922 P. 463 & 467,

دركهايم عقلا جمعياً هو المجال الاجتماعي المشار إليه من قبل، وله آثار بعيدة في توجيه السلوك وفي تجنب أفعال والإقبال على أخرى.

وقد عالج بلهان (Paulhan) هذا الموضوع نفسه بتعمق ليصل إلى فهم الانفعالات الاجتماعية التي توافينا بمختلف التيارات المؤثرة في المجتمعات أولا وصولا إلى توجيه الفرد لتؤدي إلى خلق أفعال جديدة [١٨]. ونلاحظ أن الأفراد الذين يصلون إلى مرتبة التوجيه الجمعى هم أشخاص ممتازون بسلوك خاص وهذا خاضع كل الخضوع للمجتمع، ويتجه إلى خدمة المجتمع يرعى مصالحه ولا يقيم للمصلحة الفردية كبير وزن.

وينبغي أن نفهم أن العوامل الاجتماعية متغلغلة في الفرد إلى أقصى حد، وليس من الضروري أن يكون الفرد في مجتمع اليدين بأثر المجتمع في ضبط الأفعال وتوجيهها. والمقصود من هذا البحث هو أن الفرد خاضع للعوامل في كل مكان وزمان.

ولهذه العوامل أثرها الخطير في تكوين الفرد وفي إظهار مقدرته على التكيف، وذلك يفضي بنا إلى فكرة الفرق بين السلوك الفردي، والسلوك الاجتماعي الذي لا يرجع إلى عوامل خفية ولا يرجع إلى المحاكاة كما قال طارد ولا إلى غرائز اجتماعية أو فردية تتنازع أو تتآزر دائما. فالحق أن الفرق بين الفرد والمجتمع راجع إلى الفرق في الضبط أعني أن المجتمع والفرد لكل منهما ما درجة من الضبط.

---

Fauconnet (P) Revue Pédagogique. Décembre 1921 P 419-424 (١٨)

وقد اعترف دركهايم بتطور بطئ للشعور الاجتماعي قائلا إنه يتكون رويدا ويتغير رويدا. والمقصود من كل هذا إثبات تغير هو النمو نحو التآزر في حالة الخطر، والرجعة إلى التغلب عند الأمن؛ فحقيقة التجمع عينها ضرب من السلوك الإنساني الصادر عن الفرد وتشابه ملابسات الأفراد التي تدفعهم إلى سلوك موحد واتجاه مشترك، فعندما يعم الخطر يتشابه الأفراد في الاتجاه ويقوم الضبط في هذه الحالة على عوامل اجتماعية ومتى زال الخطر بطل مغزى التجمع فيتجه السلوك اتجاها فرديا، ويكون الضبط فرديا كذلك. وفي كلتا الحالتين ينظر الفرد في اتجاهه إلى المجتمع، ولا يمكن أن يتجلى عن آثاره مجال وكذلك يتحد الاهتمام الفردي والأفعال الاجتماعية.

وإذا كنت أقول بقيمة المحاكاة التي مال إليها طارد فإني لا أراه إلا ميلا عاما متكرراً أي ميلا اجتماعيا يربط بين الأجيال المتلاحقة كما يحاول أن يربط بين الشعوب المتعاصرة، ويوافق هذا مع ما ذهب إليه دركهايم في شرحه للشعور الاجتماعي إذ قال إن قوة الحالات الجمعية ليست ناشئة من اشتراك أعضاء جيل حاضر ولكن منشأها على الخصوص أنها مخلفات روابط (Legs) الأجيال السابقة.

# الباب الثالث

# أثر المجتمع في الفعل الإرادي

## الفصل الثالث عشر

## صلة ضبط الفرد بالضبط الاجتماعي

نمس الآن النقطة الحساسة التي قال بها دوركهايم وهي فكرة الضغط الاجتماعي الذي جعله من المميزات الأساسية للمجتمع معارضا فكرة المحاكاة عند طارد. وليس في المستطاع على وجه عام أن نوفق بين هذين الباحثين في تلك النقطة إلا إذا وقفنا على حقيقة المحاكاة وما تقوم عليه من عوامل نفسية واجتماعية. ويمكن اعتبار المحاكاة منبهاً خارجيا يدفع الفرد إلى استعمال قوة ذاتية فطرية على الشخص من الخارج بدليل أن ما يحاكيه الشخص من "الأشياء" أو الحقائق الشبيهة بالأشياء في موضوعيتها كان وجوده سابقا الله له. على أنهما يتفقان في أن تأثر الفرد بالبيئة ضروري، ولا شخص يستغني عن هذا التأقلم والتأثر بالبيئة الطبيعية والاجتماعية اللتين يوحد دركهايم بينهما ويرى أن الفرد يخضع للقوانين الاجتماعية باعتبارها قوانين طبيعية، فهو يخضع لها كما يخضع لقوانين النفس غير مختار في ذلك. وكما يجد الإنسان ميله غريزيا إلى الأكل والشرب كذلك له ميل غريزى عام إلى مشاركة سائر الناس بالمحاكاة، وهذا الميل فطري تلقائي ويفضي إلى الوحدة الاجتماعية (Le Conformisme Social). [١٩]

---

(١٩) Durkheim (E) De La Division Du Travail Social Alcan 1902 P. 274.

نخرج من هذا البحث بفائدتين: أولا أن عوامل الضبط كثيرة وأصوله عريقة ولا يمكن فهمها بالوقوف على أحوال الشخص بوصفه فردا فلا مناص من وصل الفرد بالبيئة الاجتماعية التي تبدو ممثلة فيه على صورة ضبط. ثانيا: إن الخلاف الذي يفصل بين طارد ودركهايم خلاف لفظي، ويمكن لذلك أن نقول إن المحاكاة الفردية التي قال بها طارد ويراها كأساس الغرائز الاجتماعية هي الصورة النفسية للضغط الاجتماعي الذي قال به دركهايم. والذي يقوم على غريزة اجتماعية في الإنسان. ونرى أن الحرب التي شنها دركهايم على طارد لا تعني أنه يحاول قطع الصلة بين الضغط الاجتماعي والأحوال النفسية فهذا الضغط وإن كان منشؤه من الخارج ككل ضغط اجتماعي فإنه لا مناص من أن يتجلى في حالة نفسية تتواتر لكل فرد وهي ما سميناه الضبط لأن الضغط الاجتماعي يؤثر تقريبا ويمثل القوة التي يؤثر بها الجسيم ليبعث الفرد على ممارسة العنف من الأفعال وقد يقف أفعالا شديدة ويعوق ظهورها. وإذا كنا بالناحية الجسمية لا نستطيع أن نهيئ الشخص للقيام بفعل فإننا بالناحية الاجتماعية نقف على غاية الفعل التي تسبغ عليه شكله وتعين اتجاهه.

والأفعال الفردية البيولوجية وليدة النضج البيولوجي والبيئة. وأما الأفعال الاجتماعية المهذبة من صناعية واقتصادية أو فنية ثقافية فهي خاضعة للعوامل الاجتماعية. وتختلف درجة الضبط باختلاف وجود الفرد في مجتمع راق أو في مجتمع بدائي. وهذا البحث يشع ضوءا على فهم

نسبة الجريمة في شتى الأمم. وقد بحث ذلك جبار [٢٠] وذهب إلى أنه يمكن القول بوجود حالة حيوانية لبعض المجتمعات فيما يختص بالأفعال التي تظهر في شكل استجابات انعكاسية. في مقابل هذه الحالة تقوم مجتمعات كل أفعالها تقريبا أفعال موجهة وإرادية متكيفة هي التي نسميها مضبوطة وهذه الحالة في مقدورها أن تنشئ علاقات اقتصادية وقانونية فيعرف كل فرد شروط أفعاله ونتائجها، ومن ثم يتجنب اصطدامات لأن الأفعال تتكامل وتتجه اتجاهات يمكن توقعها في يسر وذلك أكبر دليل على صلة الضبط بالعوامل الاجتماعية. والعقيدة الدينية خير مثال يتجلى فيه خلل الصلة بين العوامل النفسية والعوامل الاجتماعية في الضبط.

---

(٢٠) Gobelot & Etudes De Morale Positive Alcan 1907

## الفصل الرابع عشر

## العقيدة والإرادة

لا يفهم الضبط إلا بملاحظة نواح متعددة وإن كانت في ذاتها حقيقة واحدة لا تتعدد، ولعل موضوع الضبط في علم النفس من أحسن الموضوعات التي تبرهن لنا على التكامل النفسي وتداخل العناصر المختلفة في تركيبها وبنائها؛ فالكلام على الفعل الإرادي القائم على عملية الضبط يسوقنا إلى الوقوف على شكل العمل وتوجيه الحركات. وطبيعة الضبط مستمدة من عوامل بيولوجية ونفسية واجتماعية بجمعها الضبط جمعاً محكما ويساعدنا هذا الفهم على إلقاء نظرة جديدة في موضوع الإرادة وإني الآن أخوض غمار هذا الموضوع المضطرب المتشعب في علم النفس من ناحية الفعل بعد أن حاولته من ناحية الانتباه.

وغايتي من معاودة موضوع الإرادة من ناحية أخرى هي تأكيد فكرة التآزر والتكامل في الانتساب وأن كل الوظائف النفسية المترابطة لا يتميز بعضها عن بعض، وان فكرة القوى النفسية باعتبارها ملكات ليس لها من الواقع نصيب، فقيمتها منطقية دراسية.

فنحن في حديثنا عن أية وظيفة في علم النفس نشعر دائماً بحاجة إلى الربط بعد الفصل والتمييز، ولتأخذ لذلك مثلا من كلام ل . دوجاس ( L . Dugas ) في بحثه الأهواء Les passions فإنه بعد قوله إن الهوى

يقابل الإرادة والطبع كما يقابل العقل رجع يقول إن الهوى لا يخرج بمعنى من المعاني عن الإرادة ولكن هذه الإرادة مندفعة عمياء لا ضابط لها ولا قاعدة، وأن القارئ، ليحار كيف يوفق بين هذا الوصف للإرادة وبين صفات الإرادة الحقة؛ فنحن هنا ندور حول ألفاظ تفتقر دائماً إلى مزيد من الإيضاح. وفي مقال دوجاس نفسه(٢١) نجد تأييداً لفكرة التكامل وضرورة الرجوع إليها لفهم أية وظيفة من وظائف النفس فتراه يسأل عن صلة الهوى بالمزاج من جهة وعن صلته بالمجتمع من جهة أخرى. ويرد على الذين يحصرون عوامل الهوى في المزاج وحده قائلا إن العوامل الاجتماعية لا تقل تأثيرا في الهوى عن العوامل النفسية الفردية، ويبين كيف يصعب حتى على المتطرفين في القول بالمزاج أن ينكروا ما للضغط الاجتماعي من سلطة في تهوين حدة الهوى وتغيير طبيعته وتعويقه عن الظهور. وفي رأيه أننا لا نعرف إلا ما تسمح الحضارة بالكشف عنه، وقصارى قوله أن الهوى يقوم على أساس أولى هو المزاج الفردي من جهة وعلى أساس ثانوى عرضي هو البيئة الاجتماعية من جهة أخرى ويرجع الهوى إلى تكوين عضوي ولكنه يخضع لتحولات اجتماعية.

وليس في هذا التساؤل إلا صدى لخلاف طويل بين مدارس متباعدة يحاول بعضها أن يرجع الوظائف النفسية إلى عوامل كلها مجردة داخلية والبعض الآخر يذهب خلاف هذا المذهب و. جيمز مثلا يرد الإرادة إلى عملية واحدة داخلية يسميها "Fiat" تستمد من مدخور النشاط في

---

(٢١) L. Dougas. G. Dumas Tome VI La Passion Et l'inclination P. 31.

النفس. ودركهايم يقول: ثمة في كل المناسبات في أهم ظروف الحياة على وجه خاص طرق للفعل، محددة مخصوصة تفرض نفسها علينا ويحدد القانون والعادات سلوكنا بإزائها فهي بمثابة قوالب واضحة الحدود نضطر إلى أن نصب فيها ما نمارس من الأفعال [٢٢]

وبمراجعة ما أسلفنا من بحث الانتباه الإرادي خاصا بالإرادة والعمليات التي تبدو لنا نفسية بحتة، وما قلناه في الضبط نلاحظ أن المشكلة لا أساس لها وأنه لا تعارض بين الحالات الفردية والتأثير الاجتماعي؛ فأهم خطوة يمكننا أن نخطوها في هذا الميدان هي الربط بين العوامل الاجتماعية والعوامل النفسية في أعلى وظيفة إنسانية وهي الفعل الإرادي. وأعتقد أن نصف المشكلة تحل بجعل الانتباه والفعل موصوفين بالإرادة منسوبين إليها، نشعر بالإرادة في حالات الانتباه أو حالة بذل نشاطه التوجيه العمليات الذهنية. ونستشعر إرادة الآخرين في حالة قيامهم بالأفعال، وقد ألمع ريبو إلى هذه الفكرة إذ قال: ينبغي ألا ننسى أن الإرادة هي الفعل. [٢٣]

الآن وقد أفضنا في الكلام على الانتباه الإرادي من حيث صلة الإرادة بالحاجات نحاول أن نربط بين العقيدة والإرادة. كل من هاتين الكلمتين تدل في حالة التجربة أو في المرحلة النفسية على التردد، على حين إنها في حالة الفعل تدلان على العزم واحتمال المسؤولية. وربما قال

---

Durkheim. L'évolution Morale Paris Alcan1943. (٢٢)

Th. Ritbot Maladies de la volonté ed, 30 Paris Alcan 1912. (٢٣)

الشخص أعتقد وأريد قاصداً بهما استعماله الدارج بمعنى الشك والعزم في الوقت نفسه. وفي اللغات الأخرى يتضح مثل ذلك جلياً. ففي الفرنسية تؤدي جملة Je crois معنى الظن على الرغم من أن الأصل فيها يفيد معنى العزم والاعتقاد. ولكن الموقف يختلف أبين اختلاف إن قلنا صدر الفعل عن اعتقاد أو عن سابق إرادة.

وليس هذا الاشتراك إلا صدى لما هو في الحقيقة من صلة بين العقيدة والشك، تقوم العقيدة على أساس الرغبات والحاجات الجسمية وهي متغلبة متضاربة تحاول أن تجمع في إيقاع واحد. وأهم ميزة للهوى أنه ينطوي من الرغبة إلى العقيدة أو بعبارة أخرى يجمع بين الناحية الجسمية والاجتماعية. ونشب خلاف حول طبيعة الهوى: أحالة فردية هو أم حالة اجتماعية؟ ويكشف لنا هذا النقاش دقيق الصلة بين الهوى وبين العوامل الاجتماعية والنفسية والجسمية في الفرد.

وإذ نقول إن الهوى يجمع بين الرغبة والعقيدة لا نعني الفصل بينهما، فإن العقيدة قد تنشئها الرغبة، وذلك لأن كل رغبة تحاول الاستمساك والثبات. وليس لها من سبيل إلى التعلق بموضوعها إلا سبيل الاعتقاد؛ لهذا يقول دوجاس L . Dugas إن الرغبة في الحياة تبعث دائماً على الاعتقاد بالحياة المستقلة، ويلاحظ ملاحظة دقيقة أخرى إذ يضيف إلى ما تقدم أن العقيدة لا تقوم على الرغبة وحدها فلا بد من أن يكون لدى الشخص أسباب معقولة مؤيدة لعقيدته أي يجد نفسه في حاجة إلى دفع الشك (٢٤)،

---

(٢٤) G Dumas T. VI La Logique Des Sentiments P. G

وليس الشك غير التردد، وإذن فالعقيدة وليدة الاختيار كما هو شأن الإرادة سواء بسواء.

وقد توسع دولاركروا في مقالة "العقل والإيمان" في شرح صلة العقيدة بالمجال الذهني. وبين أن العقيدة نهاية يقف عندها العقل الذي يحاول دائماً أن يربط بين الأسباب، غير أن هذا الربط لا يمتد إلى غير منتهى ولا بد أن نقول مع أرسطو: "يجب أن نقف، ووقوفنا يكون دائماً عند نهاية يرضاها المجتمع كله".

ولا نستطيع أن نقول إن العقيدة باعتبارها نهاية للعقل منفصلة عنه فالعقل الباحث عن الحقيقة يقوم على نوع من العقيدة. وقد تفطن إلى ذلك جوبلو Gobelot إذ قال إن الحقيقة أو الاعتقاد بالحقيقة نوع من الحقيقة على العموم. وشرط الاعتقاد بالحقيقة أخص من شروط الاعتقاد العام وهذه لا يقتصر وجودها على الشيء وحده ولكنها قد توجد في وجوه الإمكان (Virtualités) العميقة والدائمة التي تكون المزاج والخلق وهي كذلك في الظواهر النفسية الشعورية أو اللاشعورية التي تكون الحالة النفسية إبان تقرير الحكم. ولعلها توجد في الإرادة من قبل. ومن بين هذه الظواهر ما يبدو من الأفكار الداخلية والحالات الوجدانية والأهواء التي هي دلائل تبقي الشكوك. وهذا النص يثبت ما بين الحالات النفسية من تداخل كما يدل على خطر الاعتقاد. يركن الشخص إلى الإيمان في حالة عجزه فرداً إذ يربطه الإيمان بالمجموع ويشد عضده بتجارب العصور السابقة ولا تتوافر الدلائل العقلية لإيمان شخص إلا في حالة الشك الأولى.

وكلما حاول مؤمن البرهنة على إيمانه دل ذلك على شك في عقيدته. والعمليات العقلية تميل دائما إلى الاستقرار في شكل عقيدة أو إرادة، وذلك يتطلب إقناعا يفضي إلى الاطمئنان. وقد دلت الملاحظة على أن المتشكك يحاول دائماً أن يتخلص من دخيلة نفسه طلباً لا يؤيد طمأنينته ويبرر سلوكه فكان الفعل معيار الصحة التفكير. وقد تساءل جوبلو عن هذه الظاهرة وأجاب نفسه قائلا: الفكر يوجه الفعل بالنظرة السابقة على وجه خاص. فإن لم يكافح الفكر تحيز الإحساس وحرية الإرادة فإنه يجد نفسه أمام مشكلات وأزمات لأننا لا نستطيع تغيير نظام الأشياء بالرغبة أو الإرادة، والفعل الإنساني فعل يصدر عن كائن اجتماعي [٢٥].

ومهما تكن قوة الشخص فإنه لا يملك الإقدام على أفعال ينكرها المجتمع، فإن أقدم عليها لم يستطع الاستمرار، وقد يحاول أن يقنع غيره ويحمله على السير معه في طريقه ليشاركه في أفعاله. والإرادة تحاول دائماً أن تستند إلى عقيدة فتراها تعالج توسيع مجالها، ولكنها تتطلب دائماً مجالا محدوداً، واتساع المجال الإرادي اتساعاً بعيداً يعي الشخص ويجعل الأفعال مستحيلة لتزاحم وجوه الإمكان. وذلك ما عّبر عنه بلزاك بقوله "الإرادة تحرقنا والقدرة تحطمنا".

ويتجلى العجز عن الفعل في الانفعال الناشئ عن ارتباك الشخص إذ تتعدد أمامه طرق العمل. وقد يظن بعض الناس أن الفرق بين الإرادة والعقيدة يرجع إلى التفرقة في الحرية والخضوع، ولكن اتصال الإرادة

---

(٢٥) نفس المرجع السابق ص ٣٠

بالعقيدة يشرح لنا نقطة حساسة في الإرادة التي تقوم في الغالب على الامتثال والإرادة، كما يقول بلوندل Blondel ، تتضمن كل شيء [٢٦] وإن اتصال الإرادة بالعقيدة لواضح الأثر في جعل الفعل إراديا لأنه يتيح للفعل أن يتغير، والتعبير عن الفعل بالكلام ضرب من التغيير فيه؛ فالتعبير عن المجهود يزيد من تأثيره، وإذ نعبر عن الفعل لغيرنا تعبر عنه لأنفسنا، ولا يصير المجهود إراديا إلا إذا كان مصحوبة بالعقيدة [٢٧] ويعتقد بلوندل أن الإرادة في أقصى درجة يمكن أن تبلغ أبعد حد الامتثال، وضرب لذلك مثلا بالجندي الذي يمتثل الأوامر ويرى أن فعل الإرادة نفسه الذي سماه جيمس Fiat هو امتثال لأننا نأمر أنفسنا، فالعامل الاجتماعي يدخل دائماً في ازدواج الشخصية كما يتجلى ذلك في الذكاء وفي التفكير أو في الحديث النفسي وفي الإرادة حين نأخذ الشخص نفسه بأمر.

وذلك ينطبق على العقيدة مهما يكن التقييد والامتثال فيها عظيمين، لأن التنفيذ يتطلب الاختيار، ولكي تتضح الصلة بين العقيدة والإرادة ينبغي أن نميز بين القصد والتنفيذ. ففي حالة القصد أو النية تمكن التفرقة، وأما في حالة التنفيذ فيمتد الزمن؛ فالفعل الإرادي في الوقت نفسه فعل صادر عن عقيدة. وقد ميز بلوندل بين نوعين من الفعل: القائم على عزم عقلي [٢٨] والقائم على عزم خلقي: ويرى أن النوع الثاني لا يشبه

---

(٢٦) Ch. Blondel. Volitions P. 365 - G Dumas T. VI N. Traité.

(٢٧) Y Mourad. Analyse de l'effort et son rôle dans la vie de l'esprit 130 p. Manuscrit

(٢٨) نفس المرجع السابق . ص ٣٧٦

النوع الأول فيما يتقدمه من عزم واختيار واتجاه لأن الشخص يقوم أولا بالفعل ويأتي بعد ذلك العزم. ولعل بلوندل وقع في هذا التناقض لأنه سمى التبرير والعزم تصميما.

وأعتقد أنه لا يمكن أن نتصور أي فعل إرادي مهما تكن صفته من غير عزم سابق واتجاه مرسوم. وقد أتيحت في هذا الموضوع فرصة كان على بلوندل أن ينتهزها ليفيد من فكرة التأثير الاجتماعي بدلا من أن يعمد إلى جعل الفعل الإرادي نوعين، فكان من الأصح أن يقول بوحدة الفعل وتعدد البواعث. وقد عالجت هذه المشكلة في الكلام على الضبط. أما برجسون فقد عالج المشكلة بفكرة ازدواج الشخصية والقول بالأنا الفردي Le moi individuel والأنا الاجتماعي Le moi social فيمكن الجمع بين هذين النوعين وبين القول بالأنا الذي قد يعمل مدفوعاً بعوامل الضبط الجسمية أو النفسية أو الاجتماعية، ولا تغيب شخصية الفرد لحظة لأن هذه العوامل كلها متداخلة في تركيب الشخصية وفي مراحل تكوينها. وتلك الفائدة الكبرى للتكامل الذي يعين الفرد على استخدام الآثار المكتسبة في الملابسات القائمة دون أن يعمد إلى التجزئة أو اضطراب التوازن النفسي.

وفي مقدورنا أن نذهب إلى أبعد من هذا فنقول: إن التكامل النفسي أساس الفعل الإرادي وشرطه الرئيسي لأن التكامل يعين على التفرع الكبير الذي نلاحظه في الأفعال الإرادية وعلى الترابط بين العناصر المختلفة، فيكون الفعل الإرادي قائماً على الأسس البيولوجية الضرورية

لظهور النشاط الجسمي الذي يقوم كل حركة مستمداً من الظواهر النفسية كل التجارب السابقة الموجهة للفعل الإرادي بما نسميه عزماً وقصداً، ويخضع الفعل الإرادي العوامل الاجتماعية التي تكسبه الشكل النهائي الذي يظهر به ليلائم البيئة وليهيىء للشخص أن يتوخى مصلحة دون عدوان على مصالح الآخرين. وإن ما نلاحظه على الفعل الإرادي من اضطراب لأيسر اختلاف في تآزر هذه العوامل الثلاثة ليؤيد هذا الرأي أتم تأييد فتسفر لنا صلة الفعل الإرادي بالعوامل الثلاثة التي تقوم عليها الشخصية.

## الفصل الخامس عشر

## الفعل الإرادي في السلوك العام

لقد اتجه علماء النفس في دراستهم اتجاه الباحث المحلل لمختلف القوى النفسية، وأفاضوا في الكلام عن الملكات وأطلقوا على كل عنصر من عناصر السلوك اسماً خاصاً، وقالوا بالغريزة والمنعكس والتلقائي والإرادي وما إلى ذلك كله، ويقتضي إطلاق الأسماء على الملكات أنها قائمة مستقلة بنفسها ذوات حدود وميزات. فالآن نتساءل أثمة حقيقة متميزة عن سائر مقدمات السلوك تسمى بالفعل الإرادي؟

ووقفت مدرسة السلوكيين من الإرادة موقف المعارضة والإنكار، وخلعت على القول بالإرادة صفة الخرافة وإضافتها إلى خرافة الروح وما إليها من خفايا الحقائق التي لم تبلغ درجة الإقرار والتسليم بوجه عام، ولا يمكن أن نرد أقوال السلوكيين الذين أحالوا منهج علم النفس على منهج وظائف الأعضاء، واقتصروا على الجسم مهملين ما للنفس من أثر وخطر.

وإن إنكارهم للشعور ودرسهم للكيان النفسي كانا قائمين على أنهم انتهجوا النهج الميتافيزيقي على الرغم من ادعائهم الجري على النمط الوضعي ورفضهم ما ليس بمحسوس فيما يعالجون من الأبحاث

والدراسات. ولا شك أن فلسفة السلوكيين في هذا البحث وليدة تبسطهم للمنهج وتيسيره إذ رسموا الغاية بحسب الوسيلة. وأدى بهم ذلك إلى التجافي عن الموضوع الحقيقي لعلم النفس.

على أن ذلك المذهب لم يخل من فوائد جليلة انتفع بها علم النفس وخاصة بعد أن استطاع علماء النفس أن يواجهوا مشكلة المنهج التكامل التي اعترضتهم وحولت مجرى تفكيرهم. فقد أفادوا باتخاذ هذا المنهج مما قال به السلوكيون والآن وقد شمل النظر مختلف العناصر الجسمية والنفسية والاجتماعية للفعل الإرادي نتبعه بمعالجة درسه في السلوك العام. لأن فهم السلوك الإنساني غرض علم النفس. وقد اتجه بيير جانيه في مختلف أبحاثه هذه الوجهة وبين قيمتها وإيثارها على الأبحاث التجريبية التي تجزئي وتحلل فتصل إلى نتائج غير طبيعية.

وينبغي ألا ننكر قيمة الوصف النفسي الذي قام به بعض الأدباء، إن القصص والروايات لهي معارض غنية تجلو لنا أبرز الحالات النفسية في السلوك، وإن هذا الإنتاج الأدبي لهو وثيقة علمية سواء التزم المؤلف تصوير سلوكه في بيئته أم طوح به الخيال بعيداً عن الطبع والواقع. ومهما تخيل فإنه مجبر على التزام حدود تجعل نماذجه واقعية في مستطاع القارئ أن يتبين فيها ملامح من يعرف من الناس.

وقد اتجه الأدب الكلاسيكي في فرنسا وأوروبا كلها إلى الوصف النفسي وكانت الروايات التمثيلية أو القصص والرسائل مجموعات من

تحليل سلوك شخص بالنسبة إلى أشخاص آخرين. وقد تخالف راسين وكورني فيما وصف به سلوك الشخصيات. فكورني يغلب الإرادة على العاطفة. وراسين على العكس من ذلك إذ جعل شخصياته أدنى إلى الواقع شبهاً، وكشف عن نقط الضعف التي تعتري الإنسان حين يتورط في مآزق وحين تلج به الحيرة والتضارب بين أفعال إرادية وأخرى عاطفية، وقد اشتهر سلوك الشخصيات في روايات كورني حتى غدا الناس يقولون هذا يسلك سلوك رودريق، يعنون بطل رواية "السيد" (Le Cid) وكذلك شخصية فيدر Pheder عند راسين وغيرها.

وكان لقصص جوستاف فلوبير كبير أثر في هذا الميدان إذ عني ذلك الكاتب برسم الواقع من سلوك الأشخاص وأخرج لنا شخصيات خالدة مثل مدام بوفاري وغيرها، ولكن كثيراً من النقاد يرون أن هذه القصة قد أجادت وصف نفسية بوفاري خلافا لما يدل عليه العنوان، إن موازنة بين الظاهر من سلوك المرأة وسلوك الرجل يشع ضوءًا قويا على ما بين الفعل والانفعال عند المرأة من تفاؤل. ولا بد من الرجوع إلى المرأة لنتبين كنه سلوكها، وما له من بواطن ومن التضارب الملحوظ بين أشتات النوازع. قد انطوت قصة مدام بوفاري على غرائب أفعال. وكذلك تصادف عند لاميل Lamiel لستندال Stendhal بعض المباحثات.

وقد ابتعث لنا الأستاذ محمود بك تيمور في روايته "حواء الخالدة" سلوك المرأة العربية، فعلى العوامل الاجتماعية التي كانت تلزم المرأة أن تتخذ في سلوكها مع الرجل أفعالا تتسم بالغرابة. صور لنا تيمور بك عبلة

التي أبت زواج عنترة إسرافا في البحث عن دلائل الحب وعلائم التقدير. وترددت بين نزوات الحب ودواعي الزواج. وكذلك أظهر لنا عنترة الذي ارتحل في طلب حجر الزبرجد تحقيقاً لطلبة عبلة إذ جعلت الحصول عليه شرطاً في قبول زواجها به. والتفت المؤلف إلى أن تلبية أي مطالب لعبلة كان يدفعها إلى اقتراح مطلب جديد. ويوفق في وصف نفسية عبلة الكامنة حين أنطق دعجاء بقوله: إن عبلة تتخذ الأحياء طبولا تقرعها هتافا باسمها وترضية لطموحها فإن تمزق طبل سارعت إلى البحث عن طبل جديد.

ولا مرية أن المؤلف حينما عالج كشف اللثام عن هذه الحالة النفسية الشاذة إنما أراد أن يجلو أثر الكبت الشائع في الحياة الشرقية الذي يحدو إلى الإسراف والتغالي في التعويض.

وفي هذه الرواية يتجلى الخيال الشعري الذي كان طابع سلوك العرب، وقد ظهر شبه هذا السلوك في القرن التاسع عشر في مختلف أنحاء أوروبا حتى سمي بمرض العصر Le Mal du Siécle.

وكانت دقة روسو من قبل ذلك في وصفه الحالات النفسية باعثة لكثير من الأدباء على احتذاء حذوه في السلوك والشعور فجلوا لنا صوراً نابضة لحياتهم الباطنة، وساعدت الأزمات الاجتماعية من سياسية واقتصادية على إشاعة التعطل والفقر والحرمان، فتدمر الكثير من المثقفين وضجوا من حالهم وملوا من بيئتهم إلى الفرار والخروج إلى ناحية بعيدة مجهولة فيها الحياة وفيها العمل. وإن رواية "تشاترتن" كرواية "ستلو" لتمثل

هذا التعطش إلى التقدير الاجتماعي وذلك يظهر واضحاً عند الشعراء ومن أوتوا دقة في الإحساس.

ونلاحظ عند أدباء القرن التاسع عشر نفوراً من التزاحم على الوظائف والتسابق إليها بشتى الوسائل المنافية للكرامة الإنسانية، فكل هذه العوامل النفسية الاجتماعية مضافة إلى العوامل الجسمية الناشئة من الجوع وسوء التغذية أصابت طائفة من الناس بالانحلال النفسي والشلل الإرادي.

ومن قول فيني في وصف نفسية الشاعر: يولد الانفعال معه عميقاً فيه، خاصاً به، بحيث أن يلقي به منذ الطفولة في حالات من التجلي غير إرادية وفي أحلام متصلة، وابتكارات كبيرة. وبالجملة من النخيل عليه.

وهذه الأوصاف كلها تميل بالشخصية إلى الطابع السوي. وفي رسائل مدام دي سفيني كثير من الحقائق النفسية الدقيقة. وفي مصر ألفت السيدة قوت القلوب الدمرداشية كتاباً تضمن ثلاث قصص في الحب والموت قدمه إلى القراء العلامة أندريه موروا، وفي هذه القصص وصف نفسي دقيق لعواطف إنسانية عامة تسري في المجتمع المصري. وإذا أضفنا إلى هذه القصص المنشورة قصة "عائشة" التي ألفتها السيدة قوت القلوب أيضا ولم تنشر بعد، تجلت لنا أهمية الوقوف على أنواع الأدب المختلفة باختلاف المجتمعات.

وفي قصة "عائشة" التي هي قصة واقعية على الأرجح، تحليل نفسي

دقيق لحياة فتاة أفردتها ظروفها، لتناضل في سبيل التماس الرزق، وتتابعت عليها صنوف من التطاحن النفسي، والتضارب الاجتماعي، لا تدري أي طريق تنساق إليه. فبين يديها مختلفات من الطرق تهيمن عليها المصادفات، وهي واقفة بينها موقف الحيرة والتردد فإذا هي بعد إخفاقها في مغامرة الحب تنتهي إلى هذه المرحلة: سهرت ليلتها مترددة حيرى. وقاومت ميول نفسها الملتهبة نحو عواطف ملتحمة وأفكار مصطخبة. ولما لاح الصباح انتهت إلى قرارها الحاسم بعد أن أطالت رويتها وجمعت شجاعتها. ويمكن أن يجد العالم النفسي في مثل هذه الليلة وذلك الموقف وصفاً دقيقاً للمراحل التي يمر بها المرء قبل اتخاذ قرار حاسم في الحياة. وفي قصة عائشة تتوافر العوامل الاجتماعية الضرورية في مصر السلوك سوى وتتميز أنواع الاضطراب الاجتماعي التي تؤثر في الإرادة الموجهة للسلوك العام حتى يضطر المرء إلى فراق البيئة. وترى عائشة تسافر تاركة مصر حين شعرت أنها فقدت كل تقدير، ويحق لنا بعد هذا أن نقول لا إرادة بدون قدرة ولا قدرة بدون تقدير اجتماعي.

وبجانب الدراسات الأدبية التي تصور لنا أنواعا من السلوك الشاذ الغريب يمكن أن نتتبع بعض الحركات العادية السائدة في الحياة العامة لندرك قيمة بعض الأفعال الإرادية وأساسها السيكولوجي، ويمكن بشيء من التأمل أن نلقي نظرة علمية دقيقة على بعض أنواع السلوك لنصل إلى بعض الحقائق النفسية من طريق على يقدم لنا جانبا من الظواهر النفسية الطبيعية. ويساعدنا ذلك على فهم النفس في تكاملها الطبيعي.

ولنرجع إلى الحياة اليومية لننتزع منها بعض المواقف المتكررة في سلوك الإنسان مسايرين مراحل السلوك وترابط الحركات لتفهم الصلة بين الدوافع والغايات وقد درس سترالتن (Strealton ) موقفا انفعالية في حالة الخطر. ولكن أحاول أن أدرس سلوكا عاديا لا يمتاز بأي شذوذ انفعالي أو إرادي وإنما تحاول أن نعرف أعادي طبيعي ذلك السلوك أم متكلف؟ وما هي دلائل صلة الفعل بالإرادة في هذا السلوك الذي يمتاز عن السلوك الشاذ؟

ليست الإجابة عن هذا السؤال بالأمر اليسير لأن السلوك بأتم معناه لا يمكن الاتفاق عليه، فالناس يختلف تقديرهم باختلاف حاجاتهم وباختلاف رغباتهم في نوع من السلوك. فإن وافقت هذه الرغبات رغبات الآخرين ولم تختلف اتجاهاتهم معا كان السلوك سوياً وإلا فهو سلوك شاذ. على أن كثيراً من الناس يتفقون على شذوذ بعض أنواع السلوك كما يتفقون على أن بعضها الآخر من الأنواع السوية.

يظفر بعض الأشخاص في سلوكهم بإعجاب الناس، وذلك لأنهم يلبون رغبات المعجبين أو يتغابون في غير عناء على كل الصعاب، وهذا التغلب رغبة عامة في الإنسان حتى أنه ليستشعر الراحة إذ يرى أن غيره يحققها والناس لا يرضون عن السلوك الذي يفضي بصاحبه إلى معارضة رغبات الآخرين، ولا عن السلوك الذي يعجز عن التغلب على أهون الصعاب وتستبد به الحيرة والتردد فيثير بذلك سخرية الناس أو سخطهم أو مقاومتهم

وليس في وسعنا أن نتكلم على السلوك إلا إذا راعينا أولا ناحية القدرة الجسمية التي يتوقف علها حدوث الفعل، وثانياً ما بلغ فيه الشخص للموقف ليوجه به الأفعال إلى هدف خاص. وثالثا ملاءمة هذا التوجيه للبيئة الطبيعية أو الاجتماعية.

والكلام على السلوك متصل بموضوع الخلق كما قال روباك (٢٩) الخلق استعداد جسمي ونفسي يوقف الاندفاعات الغريزية خضوعا لمبدأ منظم بحسب البيئة. وقد يكون الاتجاه الديني طاغيا على سائر الاتجاهات ولكن سلوك المتدين يُعد إراديا لخضوع أفعاله للمراقبة ولتوجهها توجها خاصاً يطابق مبادئ رضيها الشخص ودان بها أعني أرادها.

وهناك ضرب من السلوك لا تقوم أفعاله على المبادىء الدينية، ولا تخضع إراديته إلا للتجارب الخاصة أي للذكاء، وقد حاول وب ( Webb ) أن يبين صلة العامل الإرادي بعامل الذكاء، وحاول روباك من جهة أخرى أن يظهر أثر الذكاء في السلوك، وسبق تفصيل القول في هذا الموضوع في رسالة: "الانتباه الإرادي"، ويؤيد ذلك كله تعذر الفصل بين هذه القوى التي تعمل مجتمعة وإن كانت عناصر مستقلة.

وصلة الذكاء بالإرادة تظهر واضحة في سلوك شاب يفكر في مشروعات كثيرة يدهش منها رفاقه، ويتعجبون كيف يستشعر قوة الإفادة منها. وإذا هو يتخذ من بلاغة التعبير سلاح إقناع ليعينه الرفاق على توافر

---

(٢٩) روباك ص ١١٨.

رأس مال يحقق مشروعاته الضخام، وإذا صبر متخذا هذا السلاح عينه، ليروج مشروعاته فاتفق الذين عرفوه على أنه ذو إرادة قوية، واعتقدوا أنه قادر على رسم الخطط المتشعبة واستشفاف النتائج البعيدة، ولكنه في معرض التصريح عن حقيقة نفسه أبان أنه يشرع في أعماله الكثيرة دون أن يقدر ما يلقاه في طريقه فهو يركز نشاطه أجمع في التغلب على ما ينشب بين يديه من المشكلات ويعوّل على ثقته بنفسه ولا سيما إن وافاه التوفيق في اجتياز العقبات الأولى، وكلما تخطى عقبة حاول أن يتخطى ما يليها. وقد أخفق في بعض الأعمال على الرغم من أنها أيسر مما وفق فيه. وذلك لأنه كان في هذه الأعمال يفكر فيما عساه أن يعترضه أثناء الطريق من العراقيل. وكذلك أخفق في بعض الأعمال بعد أن اجتاز مراحل منها لأن مشكلات عويصة صادقته في طريقه فاستعصى عليه علاجها وهو يرى أنه استخلص من شتى تجاربه أن السلوك الملائم والمؤدي إلى النجاح في أغلب الأعمال هو مجابهة العمل، وحل المشكلات دون تفكير فيما عساه يطرأ من الصعاب.

في هذا الضرب من السلوك جمع بين الإرادة الدافعة إلى العمل والذكاء الذي يمارس حل المشكلات في إبانها، فمن يعني نفسه بتقدير وجوه الإمكان قبل الشروع في العمل يصعب عليه الرجوع إلى التكيف بالمشكلة الأولى. وأما من يتولى المشكلات واحدة بعد أخرى في أوقاتها ومن لا يوطن نفسه على توقع جديد المشكلات التي تقابله في طريقه، فهذا وذلك يحاول كل منهما خلق الإرادة بالفعل.

فهنا سلوكان أحدهما لا ينظر في مشكلة إلا إذا ظهرت، والآخر لا يشرع في عمل إلا إذا فكر وقدّر وشمل بالتدبير ما عساه يحمل من أشتات العراقيل والعقبات، وإن هذين السلوكين لمختلفان يكادان يتقابلان تقابل النوعين من السلوك المنبسط والمنطوي الذين قال بهما يونج "Jung " ففي الحالة الأولى يتغلب التفكير على العمل ويتجلى الخضوع للعوامل المجردة مثل المبادىء الأخلاقية والدينية، وتستمد من الباطن دوافع السلوك، ولذلك يعول على الذهن والنفس وتهيمن على السلوك مبادئ صبت في قوالب عامة وضعها المجتمع، ولذلك يقل اصطدام المرء بغيره. وقصارى هم الإنسان المنطوى (Introvente) أن يقف الأفعال التي لا تعارض مبادئه الفكرية ومن ثم لا تتنوع أفعاله كما نرى في الحالة الثانية التي يخضع فيها المرء لملابساته الخارجية الخاصة فتواتيه الأفكار حسب صلته بالمؤثرات الطبيعية أو الاجتماعية التي تصادفه. ومن ثم نرى ذلك الإنسان المنطوي يؤثر العوامل الذاتية والمبادئ الذهنية التي ترسم خطة أفعاله.

فهل هناك حقا نوعان متقابلان؟ وهل يدل التقابل على سبق الإرادة للفعل أو سبق الفعل للإرادة؟ أبان يونج أن التقابل ليس بالتام، وأنه لا يمكن القطع بالتمييز بين هذين النوعين من السلوك فهما متداخلان، وكذلك أوضح الصلة بين هذين النوعين وبين أهم الوظائف الإنسانية وحصرها في أربع عمليات: التفكير، والوجدان، والإحساس، والحدس[٣٠].

وقد ناقشه شفر فكرة التقسيم المتداخل القائل به يونج فيما يتعلق

(٣٠) Psychological Types Jung ch. x

بالسلوك، لأن ذلك يسلينا إلى تجزئة الشخصية بإبراز ناحية دون سائر النواحي [٣١] وقد أصبحت فكرة النماذج الثابتة للشخصية مخالفة للموقف الحديث في علم النفس القائل بفكرة الاتجاه (Attitude) إذ للشخصية اتجاهات مختلفة حسب عوامل مؤثرة أو موجهة. وقد تكون ثابتة مثل العوامل البيولوجية الاجتماعية وقد تتغير مثل العوامل النفسية، وهذه العلاقة البيولوجية الاجتماعية أو البيولوجية النفسية أو النفسية الاجتماعية قد تتغير لأسباب طارئة فتتغير الشخصية كلها، ولذلك لا نستطيع أن نقول بنماذج ثابتة للشخصية وإن كانت تحتفظ بطابع عام يميزها من غيرها والشخصية السوية هي التي تقبل النمو وتتغير وتمر بمراحل على حسب اختلاف الملابسات.

وبهذا البحث نتجنب تعريف الإرادة على أنها نشاط للذات الشاعرة المفكرة حين تعمل في ضوء الاعتبارات العقلية "البحتة" ..

ومتى اعتبرنا الإنسان وحدة بيولوجية نفسية متكاملة متآزرة لإنتاج الفعل الإرادي كانت الإرادة إذن هي اتجاه الإنسان أو تهيؤ الذات لمعالجة تجربة أو مواجهة موقف مع الاحتفاظ بالتوتر العضلي والعقلي إلى أن تنتهي التجربة أو يتغير الموقف [٣٢].

---

(٣١) L. F. Shaffer. The Psychology of adjustement

(٣٢) مجلة علم النفس ، مصطلحات علم النفس المجموعة الثانية بمجلد ١ عدد ٢.

# الباب الرابع

# أثر المرض في الفعل الإرادي

## الفصل السادس عشر

## اضطراب الفعل الإرادي

بعد دراسة الصلة السوية بين الفعل والإرادة في السلوك السليم بقي علينا أن نلقي نظرة على انفصال هذه الصلة أو اضطرابها وما ينتج عن ذلك من سلوك شاذ أو مرضي، ونحاول في هذا البحث أيضاً أن ننظر إلى أصل الاضطراب بالرجوع إلى عناصر التكامل النفسي من بيولوجية ونفسية واجتماعية.

لأي اضطراب جسمي صدى في الميدان النفسي، وبعض الإصابات المباشرة في المخ تحدث خللا نفسياً، وفي بعض الأحيان يزدوج الاضطراب فيحدث خللا جزئياً معيناً يثبت فكرة التركيز الدماغي. وخللا عاما يلحق التركيز السيكولوجي. وتؤيد أبحاث جلدشتين هذه الملاحظة وذلك لأنه انتهى إلى إثبات وظائف عامة دائبة العمل وتقوم سائر الوظائف الجزئية التي يمكن اعتبارها كالأشكال البارزة أو المميزة على أرضية واحدة.

وليست الأرضية إلا النشاط النفسي الذي يمكنه أن يتجه اتجاهات مختلفة متنوعة بحسب التأثيرات الأخرى من نفسية واجتماعية. ويمكن أن نستغل فكرة المجالات الحيوية التي أسلفنا تفصيل القول فيها. ودراسة حالات الاضطراب أحسن وسيلة للتثبت من صحة معلوماتنا في شأن صلة

الإرادة بالفعل أو النشاط النفسي العام المتجه وجهة معينة يطلبها المجال الجسمي أو المجال الاجتماعي.

ويعتبر التعب من أهم الحالات الجسمية التي تحدث اضطراباً في الفعل الإرادي. وأهم ما تمتاز به حالات التعب سواء أكانت ذهنية أم جسمية هو هبوط المقدرة على بدء العمل في نظام معين يستمر بطريقة آلية ويعزو بوير ( C. Poyer ) هذا البدء والاستمرار إلى النفوذ الإرادي فيكون التعب صورة الضعف الإرادي أو الخلل في الصلة بين الفعل والإرادة. والتعب سبب عجز الشخص عن تغيير الاتجاه في العمليات الذهنية والجسمية فآثار التعب تمتد إلى السلوك إذ يميل الشخص المعرض للتعب إلى التزام اتجاه واحد لأن تغيير الاتجاه يتطلب نشاطاً إرادياً خاصاً.

نحن نميل في حالات التعب إلى الأحلام، وما الأحلام إلا تسلسل الأفكار بلا توجيه، ولذلك قال برجسن إنها أدنى حالات الشعور، ويرى ب. جانيه هذا الرأي نفسه [٣٣]. يظهر وقد هذا الانفكاك العقلي في شكل هذيان فلا نستطيع أن نتتبع موضوعا واحدا، ونميل إلى الانتقال من موضوع إلى آخر دون صلة واضحة، وكثيراً ما يكون الانتقال بعيد المدى مثيراً للضحك وهذا ما يظهر في حالات التخدير بالحشيش أو الحالات المزمنة من الإمساك إذ تحدث المواد المتعفنة في الأمعاء تأثيراً شبيهاً بالمواد المخدرة.

---

(٣٣) Les Aboulies Sociales - Léon Dupuis. Introduction Par Dr, P. Janet. Alean 1940.

وتظهر في السلوك الحركي آثار هذا الفقدان للاتجاه الذهني، ويصاب الشخص بنوع من التردد في أفعاله، ويقف من أتفه الأعمال الحيوية مواقف مختلفة أو يستمر في فعل واحد يكرره ولا يعدوه وإن تطلب منه الموقف الخارجي تكيفاً جديداً.

ويمكن تقريب هذه الحالة من حالة الشخص المنفعل. إن التعب يؤدي كالانفعال إلى نوع من الانفكاك في الشخصية، وينقص من التكامل الذي يعتبر شرطا من شروط النشاط النفسي واستقلاله وحرية اتجاهه ومقدرته على التكيف برغم الحالات المتجددة التي تتطلب موقفا خاصا للذات والجسم وتقتضي أعمالا جديدة قائمة على حركات مكتسبة. وقد يؤدي الانفكاك في التكامل العام إلى حالتين من التعب لا يتعذر التمييز بينهما: الأولى التعب التام الذي هبط به النشاط وينقص التكيف ويضعف الاتصال بالبيئة. والأخرى: الشعور بالتعب الذي لا يظهر إلا بعد أن تظهر الآثار الجسمية للتعب [٣٤].

يجتاز التعب مراحل ثلاث: مرحلة هبوط النشاط النفسي الذي يلحق أولا العمليات الذهنية وثانيها هبوط النشاط النفسي الحركي الذي يلحق السلوك عامة والأفعال الإرادية خاصة. والثالثة الشعور بالتعب، ولا يتضح إلا إذا عم الناحيتين الذهنية والجسمية، ولكن المؤكد أن التعب يلحق العمليات الذهنية كما يلحق الوظائف الجسمية ويؤدي ذلك إلى العجز من إخضاع الحركة للصورة الذهنية. فيريد الشخص أشياء لا

(٣٤) G. Dumas . Tome IV. C. Poyer p. 444.

يستطيع تنفيذها ويقوم بأعمال لا يريدها، فيعجز عن وقف بعض الحركات أو ليغير وجهتها ويتجلى ذلك بشكل واضح في الكلام فإن الشخص في حالات التعب يقول ما يندم على التفوه به.

وتؤدي حالات التعب إلى أكثر من هذا لأن الشخص المتعب يتعرض إلى القيام بأعمال خطيرة مثل الكسر أو الفتك أو القتل أو الأعمال السريعة التي لا تتطلب إمداداً طويلا يمكن الشخص من التدبير والتفكير.

إن أهم ما يضعف في حالات التعب هو الضبط والتوجيه. وقد وازن كربلين (Kraeplin) بين حالة التعب وبعض الحالات المرضية مثل المانيا التي تميز الإسراف في الحركات العضلية والإفاضة في الكلام والقيام بالكتابة مدة طويلة ولكن كربلين يلاحظ أن كل هذه الأفعال خلاء من الغاية والإنتاج المفيد.

ولعل اللعب والتسلية بالمشي الطليق كان أول الأمر غير إرادي يقبل عليه الشخص في حالات التعب ثم أصبحنا نتوخاها إذ نجد أنفسنا في حاجة إليه.

ويلبي اللعب رغبة الراحة لأنه عمل غير موجه فكل الأعمال المفيدة تخضع الشخص القوانين صارمة، ولكن قانون اللعب عمل إجباري يضعه اللاعب ولا يبالي أن يخالفه دون أن يخشى خطرا على حياته أو حياة غيره على أن أفضل راحة لا تتوافر إلا في الأعمال الخالية من كل قيد.

ويظهر ميل الشخص إلى الراحة حتى من القيود الاجتماعية الأخلاقية وتعتبر بعض الأعياد مثل عيد الكرنفال وشم النسيم فرصة يتواضع عليها الناس ليتحللوا من القيود الاجتماعية فترة أو يتخلصوا من كل التزام يقصر أفعالهم على اتجاه معين يقضي به العرف.

وقد لاحظت حالة شخص مثقف ثقافة عالية من جامعة اسطنبول، ومال في وقت ما إلى دراسة عدة لغات فوق قيامه بأعماله الأخرى، فأرهق نفسه أو على الأصح اعتقد ذلك. وابتدأت أعماله تفقد دقتها ونجاحها فيجنح إلى الأعمال السهلة التي لا تتطلب توجها. وبعد الاضطراب الذي لحق بأعماله الثانوية وصل به الأمر إلى العجز عن القيام بأعماله الرئيسية وتهاون بها، فكان ذلك كله يبعثه على الندم والحسرة وازدادت آلامه النفسية فأصبح صريع تيارات من الانفعالات القوية التي لم تدع له قدرة على امتلاك زمامه في السلوك. وعلى أثر ذلك استسلم الشخص لا يحضره من الأفكار موحياً إليه بأي عمل كان، فإذا هو ينفذه دون تأمل أو تدبير، فمن ثم انقلب في سلوكه العادي إلى مستوى السلبية. على أنه استمسك بشيء واحد من شخصيته السابقة هو الرغبة في القيام بعمل. واختار ما يكفل له الحرية والتحليل من القيود والقوانين، ولذلك آثر أن يبيع أوراق النصيب ليطوف في الأرض حيث شاء ومتى شاء.

وقد تتبعت أحوال هذا الشخص، فلاحظت أنه لا يطلب من الناس شراء أوراق اليانصيب إلا إذا استرعى نظره أمر خاص في من يعرض عليه الشراء. وكان دائما يقصد الأجانب مدفوعا من غير شك برغبة التكلم

بإحدى اللغات الأجنبية التي يجيدها.

وكان يطيل المثول أمام معارض الكتب الأجنبية، وتخيل لي أنه كان يعيد في هذه الوقفات ذكريات غابرة، وقد ابتاع مرة كتاباً في الهندسة واتجه إلى المعهد البريطاني القريب منها. فلما قدم على البواب أخبره أن شخصا سيأتي غداً في الساعة العاشرة صباحا ليطلب منه هذا الكتاب، فهو يرجوه أن يسلمه له، وقد سألت البواب بعد ذلك هل أتى شخص يطلب الكتاب فأجاب نافية. وما برح الكتاب في حوزة البواب لم يرجع إليه صاحبه أو طالبه.

وهنالك حالات على شاكلة تلك الحالة إذ يقوم الشخص بأعمال ليس لها من داع معقول وغاية مقصودة، وكأنه يعمل ليعمل، ولست أدري هل في الإمكان القول بأن هذا الشخص يفعل ما يريد إلا إذا فهمنا الإرادة بالمعنى العام الذي قال به شوبنهور (Shopenhauer) أي بمجموعة الدوافع الانفعالية اللا عقلية المسيطرة على الفعل في تنظيم الوجود وتعيين مظاهره وتوجيهها، فمثل هذا الفعل يمكن أن يسمى فعلا إرادياً.

والإرادة بهذا المعنى الذي يقول به شُوبنهور تذعن للرغبة الذاتية، بيد أن هذا الإذعان غير كاف فلا بد من أن يكون الفعل خاضعاً لقانون الفائدة الذاتية والاجتماعية موجهاً نحو غاية مفيدة متغلباً على مشكلة واضحة.

وبالتأمل في حالات التعب الجسمي مثل الضعف العصبي العام أو الضعف العضلي العام نجد الآثار واحدة إذ تضطرب الحالات الذهنية بانفكاك التفكير. وإن التيارات الشعورية لتكثر والأفكار تتطور ويسرع جريانها وتغيرها حتى يعجز الجسم عن إخضاع الحركة للصور المارة خاطفاً، وتتجلى هذه الحالة بوضوح شديد في حالات التخدير بالكحول أو الحشيش.

وبعد سريان التخدير إلى الأعصاب بالدم الذي يمتص الكحول في الأمعاء، ويمتص الحشيش في الرئتين يلاحظ اختلال التوازن وهو الصورة الواضحة التكامل الجسمي. وإن شروع التوازن من الزوال الدليل على أنه أول مظهر للتكامل الذي تتوقف عليه وظائف نفسية مركبة ذات شأن مثل الانتباه.

واضطراب التوازن يساير اضطراب التفكير وتفكك الحالات النفسية وفي الوقت نفسه تتفكك الحركة في المنطق أو في المشي أو في أبسط الأعمال. ومن أدق الملاحظات التي تفيدنا في هذا الموضوع أجل فائدة محاولة الشخص تكرار الكلام، وذلك لشعوره بأن كلامه مفكك متقطع فيحاول بالتكرار أن ينشد الربط الطبيعي الذي تتمثل صورته الذهنية في فكره.

## الفصل السابع عشر

## آثار التعب في التوجيه الإرادي

تنشأ حالات الشلل العصبي العارضة من التعب العام الذي يصيب الجسم من وفرة العمل أو قلة الغذاء أو تتابع الإجهاد. وأثر هذه الاضطرابات واحد في الأعصاب التي تفقد من توترها حتى تبلغ مبلغ الانفكاك. وبعض الأمراض الجسمية مثل التيفود يترك آثاراً خطيرة في الجسم أو يصيب الأعصاب بصفة خاصة، فيود المرض يسقط الشعر وتسوس الأسنان ويضعف البصر وكذلك تتراخى الحركة ويهبط النشاط النفسي العام.

وهذه الحالة من الضعف الجسمي المقرون بالضعف النفسي تسمى بالفصام (الاسكيزوفرينيا) أو الخرف المبكر ( Dementia Pretox ) وأن جميع الأمراض النفسية (Psychoses ) التي ترجع إلى استعداد خاص وهو شدة الحساسية وسرعة الانفعال تعرض الشخص إلى هذه الحالة من التعب، وهي تظهر في عجز الشخص عن التركيز والانتباه. ولكنا لا نستطيع أن نقول إن أساس الأمراض النفسية هو حالات نفسية كشدة الحساسية والصدمات النفسية لأن هذه الحالات عينها تكون بأسباب جسمية. وقد بين ريتشي (Richet) سنة ١٩٠٢ أن الحيوان إذا تعاطى

جرعة من سم معين كانت له نحو هذا السم حساسية شديدة. وقد أطلق على تلك الحالة اسم Anaphylaxis [٣٥]. فهذه الظاهرة الجسمية تبين لنا أيضا أساس سرعة التأثر عند بعض الأشخاص من الناحية النفسية؛ فالتعب يمثل لنا الصلة بين الحالة النفسية والحالة الجسمية وتأثرهما معاً بما يلحق إحداهما من التعب.

وأذكر أني كنت حينا في حالة من الإعياء أدركتني من الإفراط في العمل الذهني، وأثر ذلك التعب تأثيراً بليغا في جسمي عامة وفي أعصابي على وجه خاص، وعرضني التعب إلى الأرق لأن التعب العصبي يورث العجز عن القيام بفعل النوم. وكنت في أيام التعب الشديد أجتاز امتحانا مهما ولاحظت أن السلوك الإرادي لم يتأثر، وكنت أبذل المجهود المطلوب، لا يضايقني أحياناً إلا دوار.. ويخيل إلى أي مدفوع دون وعي إلى النهوض بالواجب عليه في وقته المرسوم، وإن أكثر الناس في أوقات التعب الشديد ليظلون محتفظين بما لهم من اتجاهات. وقد بدا ذلك واضحة في الحرب الماضية في العلمين إذ ذكر أحد الجنود أن الطائرات الألمانية كانت تبذل جهودها لتؤرق جنود الحلفاء ولتزيد من تعبهم ولتحرمهم من فرص الراحة.

وكانت آثار التعب بادية بين المحاربين الذين يعملون بقواهم العضلية، وأما كبار القواد ورؤساء الأعمال الذين يستخدمون قوام الذهنية فقد ظلوا مدة أطول مما ظل أولئك يحتفظون باتجاههم وقدرتهم على الاتزان والتكيف الدقيق. ويبدو أن التعب متصل بالإرادة اتصالا عكسيا أي أن الإرادة في

---

(٣٥) Devine Recent Advances In Psychiatry 2' ed 1933 P 177

مكنتها أن تقضي إلى حد بعيد على أثر التعب. ويمكن للشخصية أن تظل محتفظة بصورتها الكاملة وتوازنها في أشد أوقات التعب، وغاية ما يلاحظ من نقص هو أن بعض الانفعالات سهل ظهورها.

تتجلى قوة الشخصية في أوقات التعب فتتغلب على أثره، والتعب في الحالات الطبيعية العادية يتمثل اضطرابا في النشاط العصبي والنفسي، يورث العجز عن تركيز المجهود في جزء معين من الجسم ليقوم بعمل ما. والتعب يشل القوة على التركيز، ويشيع في الجسم كله. وقد ألمعت في رسالة الانتباه الإرادي إلى هذه الفكرة وحاولت أن أبين ما للانتباه في حالات التعب من أثر، وأن علاقة الانتباه بالمجهود العصبي لتتيح لنا أن نستخلص الأسس النفسية للتعب، وهذه العلاقة تظهر جلية في الانفعالات كالخوف المؤدي إلى اضطراب الحركة بما يحدثه من رعدة في الجسم كله، ومن ذلك يبدو لنا ارتباط الاتجاه الذهني بالمجهود العام.

وللانتباه دخل كبير في بذل أي مجهود؛ فالاضطراب الملاحظ في أي حركة إرادية راجع أولا إلى الاضطراب في الانتباه وفي النشاط الذهني على وجه عام ولذلك يؤدي أي اضطراب للمجهود النفسي إلى اضطراب في الجسم كله.

وثمة حالات عابرة من التعب النفسي ترتسم آثارها على الملامح؛ فإن أيسر عمل ذهني يجعل بعض عضلات الوجه تتقلص، حتى أننا إذا أقبلنا على النوم شرع نشاطنا النفسي الجسمي العام في الهبوط بتأثير

الإرادة، ألفينا التوتر العصبي يعاود من تلقاء نفسه فتنقبض عضلات الجبهة. وهكذا ترى التعب ضربا من ضروب تزايل القدرة على بذل المجهود الجسمي والعجز عن تركيزه في ناحية معينة من الجسم.

وبمآزرة بعض العوامل النفسية كالتفكير في العواقب سواء أكانت حميدة أو وخيمة يمكن للمجهود أن يستمر ويتركز أطول مدة. وبالإيقاع يمكن لهذا المجهود أن يتوافر له التنظيم الذي يفيد أجل فائدة في إذهاب التعب الجسمي، وذلك لأن التنظيم يذهب اضطراب الفعل الإرادي الناشيء من التعب وأن تنظيم الحركات يساعد على زوال التعب فترة من الزمن. وهذه الملاحظة تؤيد رأى ب . جانيه في اتخاذه الفعل أساسا للدراسات النفسية وتقديمه على دراسة الشعور من الناحية الذاتية الاستبطانية. وبعض المدارس الأمريكية تتخذ الموسيقى وسيلة لحث الأطفال على الحركة من جري منظم وقفز وما إلى ذلك من حركات طليقة لا غاية لها. وعسير على الشخص أن يقوم بحركة وأن يدأب على تكرارها دون أن يعرف لها نتيجة وضعية محسوسة؛ فلا مناص إذن من غاية تنشئ الفكرة الموجهة للفعل. فإن لم تكن هناك غاية فإن الحركة لا تكون منظمة وقد أسلفنا أن الحركة والذهن لا يعرف أيهما أسبق. ويبدو لنا بدراسة اضطراب الفعل الإرادي أن الاضطراب يتمثل في صورة انفكاك بين الفعل وبين الإرادة أو بين الحركة والصورة الذهنية المنظمة.

وأثر الموسيقى في الفعل والحركة يتم دون شعور وذلك لأننا لا نستطيع أن نقول إن الأفعال العادية خالية بتاتا من الأثر الذهني؛ فلا شك

أن تعود الجسم تكرار حركة ما ييسر عليه مزاولتها مع التفكير في حالة ذهنية أخرى على أن الحالات الذهنية التي يجرى فيها التفكير حين القيام بفعل خال من تعقيد لا تثر أي حركة، فلو فكرنا في حركة غير الحركة التي نقوم بها لاضطرب الفعل العادي ونجد مصداق ذلك في قياس المجهود العضلي النفسي وصلته بالانتباه حين يكلف الشخص الذي تجري عليه التجربة بعملية حسابية.

وأي اضطراب يحدث أثناء القيام بعمل مألوف يرد إلينا الانتباه أي المجهود الإرادي الكفيل بإنجاز ذلك العمل، وهو في الحقيقة بروز للمجهود في بؤرة الشعور.

والعوامل اللا شعورية التي أشرنا إليها في الفعل العادي لا نستطيع إهمالها في الأفعال الإرادية؛ فكل اضطراب أو إخفاق في فعل إرادي يترك أثرا في نفس صاحبه فيعمل على تفادي الأسباب التي أدت إلى ذلك الاضطراب فيما مضى ليوجه الفعل الحاضر توجها صحيحا يضمن به النجاح، وقد بين ب . جانيه أن هذه التجارب السابقة هي التي تكون ما نسميه اتجاها إذ الإخفاق يبعث الحيوان أو الطفل في مرحلة من مراحل نموه على الانتظار وهو شرط مهم من شروط الإدراك والانتباه، ويمكن اعتبار الانتباه شكلا من أشكال الفعل المتوقف. ويقتضي الانتظار سلوكا في المستقبل والانتباه يقتضي تركيز المجهود في الأفعال الحاضرة. [٣٦]

---

(٣٦) Dr. Youssef Mourade-Analyse de l'effort et son rôle daus la vie de l'esprit - Manuscrit P. 129.

وأهمية الانتباه في التوجيه تقوم على وقف الحركات الفضولية التي يمكن الاستغناء عنها والتي لا يدعو إليها الموقف الحاضر، وأغلب حالات اضطراب الفعل الإرادي يرجع إلى ظهور حركات فضولية ومحاولات عدة تطغى على الحركات المرورية وتعرفها عن غايتها. ولذلك قد تقوم الوحدة الموسيقية أو المجموعة الإيقاعية بتنظيم الانتباه أولا وتنظيم الحركات ثانيا.

# الفصل الثامن عشر

# النقص الإرادي

نفتقر في تعبيرنا العلمي إلى كلمة عربية واحدة تقابل لفظة Aboulie المركبة من A الحرف اللاتيني النافي و boulie المعبرة عن الإرادة. فالإرادة لا تفقد في أية حالة من الأحوال الواقعية وإنما تنقص. ولا يكون هذا النقص إلا نسبيا بالقياس أولا إلى مستوى النشاط الذي اعتاد الشخص بذله مدة طويلة قبل النقص وبالقياس ثانيا للمستوى المطلوب في النوع وهو المستوى الذي يقتضى تركيب الجسم وتلبية ضروراته.

وفي كثير من الأحيان نصادف أشخاصا يعانون النقص الإرادي في حالات عابرة تنشأ عن بعض الانفعالات الشديدة أو بعض التغييرات المحيطة التي تدعو الجسم إلى تعبئة قوة جديدة للتكيف. ويعتبر النقص الإرادي اضطرابا وظيفيا ينشأ في أغلب الأحيان عن انفكاك أسس التكامل النفسي. وليس من اللازم أن يكون الاضطراب الإرادي ناشئا عن خلل جسمي، وإن كان هذا الخلل سببا كافيا لهبوط النشاط النفسي. وقد قال مكدوجال بتقسيم عام للأمراض النفسية، فهي وليدة اضطرابات جسمية أو اضطرابات اجتماعية، وأغلب الاضطرابات في الأمراض

العصبية ترجع إلى الاضطراب الإرادي الناشئ عن اضطراب ناحية من نواحي التكامل النفسي.

وأشار مكدوجال في بعض مباحثه إلى قيمة فهم التكامل لحصر الاضطرابات النفسية. وكان قد انتهى إلى فكرة التكامل بعد تأمله في الأمراض والاضطرابات النفسية التي عرضها في كتابه ولم تكن فكرة التكامل أساس البحث، ولم يتخذها الكاتب منهجا ولكنها كانت نتيجة انتهى إليها، وقد تجلت له قيمة التكامل بعد أن استبان آثار الانحلال النفسي، ولذلك عنون مبحثه بقوله التكامل والانحلال.

يقتضي التسلسل الطبيعي أن نبدأ من حيث انتهى مكدوجال؛ فإننا نتخذ سبيلنا إلى فهم الاضطرابات من فكرة التكامل التي لم يتوسع مكدوجال في تصورها، ونحن نخالفه فيما انتهينا إليه، إذ نقيم التكامل على قواعد من الارتباط الطبيعي بين الميادين الثلاث الجامعة: المجالات البيولوجية والنفسية والاجتماعية. ومن ثم يتضح لنا خطأ الفكرة القائلة بالفقدان الإرادي.

وإن نظرة إلى الإنسان وسلوكه تبدي لنا أن الإرادة وظيفة نفسية معقدة وليس في مستطاعنا أن نظفر بشيء واضح مستقل يسمى إرادة تفقد أو توجد. وقد وقع ريبو في هذا الخطأ وخص فصلا من كتابه "أمراض الإرادة" قال فيه: إن حالات فقدان الإرادة التي نحن بصدد دراستها هي الحالات التي ليس فيها اختيار ولا أفعال حين يكون النشاط النفسي

موضوعيا أو يبدو كذلك كما في حالات الندم العميق وانقطاع الإحساس والغيبوبة والحالات المشابهة، فذلك رجوع إلى الحياة النباتية. لسنا نستطيع أن نقول إن الإرادة تزول لأن زوال الشيء يقتضي وجوده.(٣٧) على أن استشعر في بعض الأحيان الشك في هذا التصريح وقال: ليس يليق أن نؤكد دائما فقدان القدرة الإرادية إذ تعترضنا بعض الحالات المشكوك فيها جدا.

ليس شك ريبو بالشك الواضح في ذهنه فقد حاول غير مرة في كتابه أن يرجع عن هذا الشك، وتناول في مواضع الكلام عن فقدان الإرادة مستعملا كلمة (Aboulie) ونحن إذ نتكلم عن الإرادة تعني النشاط النفسي القائم على التوتر العضلي وعلى الكف العصبي والمركزي والضغط أو الضبط الاجتماعي. ولا تنعدم الإرادة ما دامت الحياة، فالحي يقاوم إلى آخر أنفاسه مقاومة تختلف باختلاف المقدرة مستعملا ما تيسر له من وسائل فليست المقاومة إلا بذل الجهود للتغلب على شيء ينافي الحياة، وليست سعيا قويا إلى التكيف طلبا للشعور باللذة.

وإذن فالشعور بالألم هو أول خطوة من خطى المقاومة، وهي المرحلة التي تنقلب فيها الرغبات اندفاعات انفعالية أو أفعالا إرادية بحسب شدة الرغبات، وبحسب درجة المقاومة التي تعوق الشخص عن رغائبه.

لا فصل بين الإرادة، وبين مختلف حالات النزوع من رغبة وألم

---

(٣٧) Les Maladies de la volonté - Th. Ribot P, 124

وتطلب اللذة؛ فالرغبة تشتد إذا آلم الإنسان أن تعوقه دونها العوائق. وبعض الناس يتخففون من الغذاء اقتصاديا أو تفاديا من متاعب سوء الهضم، وحين يعرف الشخص أنه مستهدف للسل لقلة غذائه أقبل على الطعام يستكثر منه، وكذلك يظل بعض الأشخاص فترة من الزمن لا عهد لهم باللذات الجسمية، فإذا تذوقوها بعد ذلك انهمكوا فيها. وسن الشباب هي عهد الفوار لأنها من اكتشاف اللذات.

ربما قال معترض على إثبات فقدان الإرادة أن هناك ناسا تبلغ بهم السلبية في الفعل والهبوط في النشاط مبلغ الانقطاع عن الأكل حتى يضطر معالجوه إلى إنجادهم بتغذية صناعية خشية أن يهلكوا جوعا، ولا شك أن هذه الحالات برهان على تواري الإرادة، ولكن هذا التواري ليس بالفقدان وإنما هو اضطراب الإرادة، لأن العازف عن الطعام في مثل هذه الحالات إنما يعزف لأسباب جسمية أو نفسية. فمن الأسباب الجسمية أمراض المعدة واضطراب وظيفتها، وهي تورث المريض بها آلاما إذا طعم فينصرف عن الأكل قرارا من الألم الذي هو أشد تبريحا من عضة الجوع وقد يفقد الشخص الشعور بالجوع دن أثر النقص أو التعطل في الحاسة الحشوية.

ومن الأسباب النفسية المؤثرة في الإرادة ما يتصل بالأكل من أوهام كالخوف من التسمم بالطعام أو ما قد يكون من تذكر أو اضطراب انفعالي سبق وقوعه في إحدى الأكلات. ومن المشاهد أن الأطفال يأبون نوعا من الطعام لأن ذويهم دسوا لهم فيه دواءً كريه المذاق يوما من الأيام، وقد يشب الطفل مكرها لذلك النوع وإن كان محببا في ذاته كالحلوى، ويبقى

الشخص معرضا عنه طول حياته، وإن كان واثقا أنه خال من الدواء الكريه. وذلك لأن الربط القديم لا يزول تأثيره. وقد بلغ الأمر بالشخص أن يتقزز من رائحة هذا الطعام ويتجنب مرآه حتى لا يذكره بالدواء البغيض.

على أننا نرى أن الامتناع عن القيام بفعل ما، وبذل المقاومة في هذا الصدد ليس إلا دليل إرادة، وإن كانت ممثلة في فعل إرادة غير طبيعي. فما نسميه فقدا إراديا إنما يقوم على أفعال إرادية غير طبيعية يبذل فيها الشخص مجهودا جبارا أكبر مما يتطلبه السلوك العادي من مجهود، والمثل لهذا في حالات السلوك هو ما سماه هول Hull سلوك رد الفعل أو السلوك الاستجابي (Conduite de réactivité) المقابل للسلوك الموجه أو سلوك النشاط (Conduite d'activité ) ففي السلوك الاستجابي وهو حالة اضطراب الفعل الإرادي ينهض بأفعال كثيرة وبستجيب مما يلقاه في طريقه من المنبهات، وذلك يتطلب منه كبير مجهود لأنه على وجه خاص يكون في حاجة إلى تكيف متجدد، مما يقتضى تجديدا للنشاط يورث التعب. ويبلغ ما يشعر به الشخص من الراحة هو الخلاص من وقف الحركات الناشئة التي هي وليدة الساعة وإن كان يؤدي نوعا من النشاط الإرادي فرارا من بذل مجهود أكبر مما يبذله.

وهذه الحالة من الاضطراب في الفعل الإرادي تظهر واضحة في حالات التعبير العضلي عند بعض المرضى بالنشاط الإرادي كما يقول ريبو يظهر أولا بانتشار الحركات في الجسم كله. فيقتضي التهذيب إلغاء كثير

من هذه الحركات. إذا نطق الطفل بقوله: "لا" حرك صدره ورأسه. فإذا كبر ركز الحركة حتى تنحصر في رأسه. وقس على مثل ذلك سائر الحركات التي تتطلب التركيز، فنحن إذ نؤدي أهون الأعمال المألوفة كحركات التعبير العضلي نفتقر إلى إرادة ترد بها الحركات الفضولية. وإن حالات انتشار الحركة عند الأطفال يعاود بعض المرضى الكبار ويصحب ذلك الاضطراب في الأفعال الإرادية على وجه عام، ولذلك فهم فرويد وهما أن بعض المرضى تعاودهم طفولة السلوك، وقد رد جلدشتين هذه الفكرة وأبان أن الجسم تعتريه ما يشبه الحالة الجسمية إبان الطفولة، وهذا دليل قاطع على أن اضطراب الفعل الإرادي وليد انفكاك الشخصية أو ضعف التكامل النفسي، وكثيراً ما تتماثل الحالة المرضية والحالة الجسمية وقت الطفولة بسبب اختلال وظيفة أساسية من أسس التكامل النفسي واضطراب الوظيفة العامة التي يقتضيها تداخل تلك الأسس وترابطها.

فقد لاحظ لورنت (Laurent) أن ملامح وجه الموسيقي خاصة تظهر في التوافق بين أوضاع النظر وتحديق المقلة واختلاجة الفم وأن المريض المعتل الإرادة يفقد أول ما يفقد هذا التوافق في الملامح بسبب العجز عن الكف، وقد يشتد عجزه حتى يتخذ وجهه وضعاً من أوضاع الضحك إلى حد القهقهة دون أن يدعو إلى ذلك داع.

وقد أضاف دروارد ( Drouard) إلى التعبير العضلي اللا إرادي على حين أننا نرى أن اضطراب الفعل الإرادي يضعف الكف وينقلب

فعلا آخر نسميه لا إراديا [٣٨].

ودراستنا لهذه الحالات تؤيد بطلان القول بفقدان الإرادة، فكل ما هنالك اضطراب يظهر في اختلال التعبير العضلي من إصابات بحتة أو زهري مخي أو شلل عام.

فالوجه في حالات الفصام يعبر عن رغبة في البكاء، وقد ينطلق فجأة ثم يعاود هدوءه في سرعة كأنه آلة تنطلق فجأة وتقف فجأة، وكذلك تفقد ملامح الوجه توافقها لأسباب اجتماعية كالحسد أو التقليد أو المشاركة الوجدانية. وهذه الحالات يصفها (درووارد) بالاضطرابات الإرادية. وإذن، إذا قلنا إنا نجعل الملامح معياراً ومقياساً نقيس به درجة النشاط الإرادي؛ فكل الانفعالات تظهر على الملامح وأقل تغير في النشاط النفسي ترجم عنه الوجه.

وقد أشار Hellenworden de Konisberg من قديم إلى الصلة بين شطري الوجه واتجاه الحركة في شطري الجسم عامة، وحاول مد الصلة بين درجة النشاط الإرادي واتجاه النشاط العصبي والتوتر العضلي في الوجه، وقال إن الأشخاص الذين يميلون في تعبيراتهم العضلية إلى اليمين هم في الغالب أشخاص أقوياء ذوو حزم.

وللعلامة جورج دوماس بحث واف زاخر بالملاحظات أوضح لنا فيه

---

(٣٨) Dr. G. Drouard La Mimique Chez les Aliénés P. 218

دقائق التعبيرات الخاصة وصلتها بالحالات النفسية. واشترك جورج دوماس مع الدكتور دو بون Dr Dupont بتجارب في معمل كهربي لاحظ فيها أن تنبيه بعض المناطق العضلية يحدث حالة من التغيير في الوجه واختارا لتجاربهما النساء دون الرجال لكيلا يخفي شعر اللحية أقل انقباض عضلي في الوجه والتقط صوراً شتى تجلت في الاستجابة لهذه التنبيهات الكهربية، وكذلك أوضحت الملاحظات الإكلينيكية أن المصاب بالهستريا يشبه في تعبيره العضلي الوجهي ذلك المصاب بالفالج العصبي.

وكذلك لاحظ ش. رشي (Ch.Richet ) أن التجارب الإكلينيكية تؤدي إلى انقباض عضلات وجهية تحدث حالة من الابتسام ويقوى انقباض العضلة حتى أن الإرادة نفسها تعجز عن بسطه.

وبهذا يمكننا أن نعتبر توافق الابتسامة في تعبير الوجه دليلا على التوازن وعلى سلامة المخ. ويمكننا أن نتوسع في هذا الموضوع فنتتبع حالات مرضي العقول وندرس صورهم لنبين طريقة انتشار النشاط العصبي في وجوههم وقيامهم بالتعبير في الجسم. وبعض الملاحظات السريعة التي يمكن التعويل عليها للوصول إلى قانون يشير إلى أنه يمكن الوصول إلى شيء يساعدنا في تشخيص بعض الأمراض النفسية وطرق التعبير الوجهي يظهر جليا أن الإرادة لا تزول بتاتا على عكس ما ذهب إليه ريشي ( Ch Richet. ) إذ قال إن اضطراب الملامح قد يرجع إلى عجز الإرادة عن وقف الحركة في بعض العضلات الوجهية دون بعض. ونحن وقفنا على حركة عزوناها إلى النشاط النفسي الإرادي؛ فالإرادة المحركة هي التي تملك

وقف الحركة في الوقت نفسه وقصارى ما يقال في حالات فقدان التوافق في التعبير العضلي الوجهي هو اضطراب الفعل لا فقدان الإرادة.

ومنشأ هذه الاضطرابات كلها في الغالب هو انفصال النشاط النفسي عن النشاط الجسمي لغلبة أحدهما على الآخر. وقد ظهر ذلك في حالات الانفعال الشديد إذ ينقلب الضحك بكاءً، ويضطرب التعبير بين اضطراب على حين أن المصاب بالملانخولية لا يجيد التعبير في يسر عن انفعالاته مهما تكن هينة.

ومن ناحية أخرى قد تكون بعض الإصابات المخية وبعض الشلل في العضلات سببا في اضطراب التعبير وتبدو لنا صلة الإرادة بالفعل متوقفة على سلامة النفس والجسم ليؤازر كل منهما صاحبه.

وتظهر قيمة الصورة الذهنية وأثرها في التعبير عند العمي الذين لم يروا وجها ما رؤية العين أبدا. فلهؤلاء تعبير عضلي خاص، وكذلك الذين تضطرهم الحياة الاجتماعية على تصنع نوع من الشعور فهم يحاولون أن يترجموا عنه. ومن ثم لا يتوافر لهم من التوافق ما يتوافر في التعبير الحقيقي المنبعث عن شعور صادق لا تصنع فيه. يستطيع إذن أن يخلص لنا من هذا كله بتوثق الصلة بين الحالة الجسمية والذهنية والاجتماعية، وإن الإرادة باعتبارها حقيقة مستقلة هي خلاصة هذه العوامل الثلاث للتكامل النفسي، ويظهر ذلك واضحا في التعبير العضلي وهو أكثر وضوحا على نحو سلبي في اضطراب التعبير الذي ينشأ عن عطب جسمي أو قلق نفسي

أو انفكاك اجتماعي كما هو الشأن في الصورة الكاذبة والحسية، إذ لا يتم مراد الشخص في تحقيق الفعل ويظل مضطرا لفقدان الصلة الاجتماعية التي تحاول الشخص التعبير عنها، وبناءً على ذلك ينقص الفعل ونرى مصداق ذلك في اضطرابات اللغة.

وقد ظهرت حالة اضطراب لغوي في فتاة كانت تعاني الضعف الإرادي والخجل والشعور بالخوف من أشياء كثيرة فكانت الفتاة تتحبس وتعوزها الألفاظ المطلوبة، ولما كانت هذه الفتاة على جانب كبير من الثقافة فقد خشيت فقدان الذاكرة (Amnésic) والحق أن هذه الظاهرة كانت متصلة باضطراب أعمق إذ كانت مصابة بنقص إرادي اجتماعي Aboulie Sociale إذ أخذت نفسها بأن تعيش فترة من الزمان مذعنة لسلطان ابنة عمها تتحكم فيها كما تهوى وتسيرها كما تريد وقد شعرت بارتياح شديد يوم تحررت من هذه العبودية بفضل طبيب. وهذه الحالة تشبه حالة شاب بقي فترة منقادا لقرينه فكان يشكو استبداده معه وسيطرته عليه ثم استطاع التخلص منه بالسفر، وأصبح بعد ذلك يخشى أن يلتقي بهذا القرين القديم وسيطرته القوية عليه وكان الشاب عيبا في تعبيره يتخذ لحديثه كلمات معدودات في حديثه.

وفي مختلف هذه الحالات التي يخضع فيها الشخص لإرادة خارجية عن إرادته يعتريه شعور بالنقص وضعف الثقة بالنفس يتجلى بالمقدرة على التعبير. ومن اليسر أن تلاحظ هذه الظاهرة في الحالات العارضة التي تواجه فيها المرء شخصية بارزة يتهيب جاهها وقوتها أو حين يخالط مجتمعا

جديدا فتراه قد تلعثم في كلامه وليس معنى ذلك إلا أنه فقد توجيه أفعال التلفظ.

والدليل على ذلك نجده في بعض المشاهدات الخاصة للخطيب الذي يريد أن يرتجل خطبة كتبها من قبل وأحضرها بين يديه دون أن يقصد النظر إليها أو التلاوة منها؛ ففي أغلب الأحيان يتوقف هذا الخطيب عن الكلام الاضطراب الفعل في اتجاهه إذ يحار في الأمر أيستمد الكلام من بحثه في التأليف الجديد أم يتلو ما بين يديه من ورق. وتلك الحالة تعتري الشخص إذا ضعفت إرادته أو كان مريضا بالتردد في دخيلة نفسه.

وفي الحالتين اللتين أشرنا إليهما فيما سبق كان كلاهما يحب الشخص المسيطر عليه ويكرهه في الوقت نفسه، فهو يطلبه ويخشاه ولا يفتأ مترددا في الحالتين، ولا ريب أن هذا التردد أثرا مباشرا في الأفعال وقد أشار ألبرت Allport إليه وكشف عن خطره في السلوك العام وثمة ملاحظات هامة تثبت أثر التردد في اضطرابات اللغة.

# الفصل التاسع عشر

# اضطرابات اللغة

وفق الإنسان في خلق وسيلة يسيرة تنقل إلى بني جنسه ما يعرض لذهنه من الانفعالات والأفكار، هذه الوسيلة هي اللغات المختلفة، وهي أنواع من الموسيقى تؤدي أصواتها معان مختلفة. وتلك الموسيقى الصوتية أطوع مرونة من التوافق الشكلي الذي ألمعنا به في شأن التغيرات العضلية الوجهية، وقد تغلبت اللغة الحلقية الصوتية على اللغة العضلية البصرية لأنها تساير في سرعتها تغير الحالات النفسية السريعة.

ومنذ القرن السابع عشر نجمت لغة جديدة هي اللغة الموسيقية المعبرة عن انفعالات دفينة هي أسرع تغيرا من الأفكار والصور، ولعل ظهور الموسيقى التعبيرية كان عونا على شيوع السلوك الزمني. والموسيقى تمتاز عن اللغة بأنها أقدر على التعبير عن شتى الحالات النفسية وعلى الجمع بين أشياء كثيرة تحدث في وقت واحد. فأما اللغة فإنها تفصل بين الحالات النفسية وتجعلها في نسق غير النسق الطبيعي، وذلك بعد أن تكون قد صاغتها في أشكال وقوالب هي أشكال الكلمات وقوالبها التي تحدد أدق تحديد ما يقابلها في عالم النفس.

أسفرت الملاحظات الإكلينيكية عن كثير من المرضى بالاضطراب اللغوي يعانون مصاعب جمة في النطق بكلمة مستقلة على الرغم من قدرتهم على النطق بالجملة، ولذلك قال جاكسن (Jackson1868 ): ليس يكفي القول بأن اللغة مكونة من ألفاظ فإن بين بعض الألفاظ وبين البعض الآخر رباطا على نحو خاص، ولولا أن هناك نوعا من التداخل بين أجزاء الكلام لكان التعبير الشفوي ليس إلا تتابع كلمات تتم بها جملة من الجمل.

فاللغة ذبذبة من أصوات متصلة مسايرة لبعض الحالات النفسية، فأما الموسيقى فهي عدة أشكال متلازمة تحاول أن تصور موكب الحالات النفسية المتداخلة المترابطة التي تعجز اللغة عن التعبير عنها، على أن اللغة تتأثر تأثرا كبيرا بالحالة النفسية، فهي ميسرة للشخص الزاخر بالأفكار والعواطف، وإن كان تزاحم الحالات النفسية التي يبغي التعبير عنها مدعاة لاضطراب لغوى سرعان ما يظهر فيه تيار اضطراب الانتباه.

لا يبذل المرء في حديثه أي مجهود إرادي ولكنه إذا تحدث إلى جليسه فإن انتباهه قد يتجه فجأة وجهة أخرى غير التي كان متجها إليها قبلا في عناء استمرار التحدث، إلا إن كان ذا قدرة ممتازة على ملء الفراغ النفسي بألفاظ يستدرك بها الوقت حتى لا يشعر الجليس أنه انفصل عنه بانقطاع الانتباه. وقد يكشف المستمع الفطن هذا الانقطاع لما يلاحظه من الانفكاك بين اللفظ والمعنى، والمتحدث إذا انقطع انتباهه خرج كلامه على نحو آلي، ومن هنا نستخلص أن اللغة الجامعة بين الحالات النفسية

والحركات الحلقية هي فعل إرادي، فالاضطراب اللغوي إذن ليس إلا اضطرابا في الفعل الإرادي، وكثيرا ما يكون مصحوبا باضطراب الفعل على وجه عام، وربما وجدت المريض بالحبسة عاجزا عن القيام ببعض الحركات المعبرة كالكتابة.

وقد لوحظ أن المريض يستطيع القيام ببعض الأعمال، كما يستطيع النطق ببعض العبارات في ملابسات خاصة تضطره إلى الفعل أو التكلم، وهذه الحالات يصفها جاكسن بالحالات الميكانيكية، ويجعلها مقابلة للحالات الإرادية التي يقوم الشخص فيها بعمل أو التلفظ بالكلام من غير مصوغ طبيعي. وقال جاكسن إن من الممكن أن نستخرج من هذه الملاحظة ميزة الفعل الإرادي إذ يطلب به تقويض الشخصية النفسية الحركية في دقتها (٣٩) وعنده أن هذه الميزة حقيقة ثابتة، وإن كانت غريبة، وتلك إشارة منه إلى أن ذلك الرأي مشكوك فيه. ولقد لاحت لي هذه الفكرة أثناء دراستي الاضطراب التعبير العضلي الوجهي، وأرى أن ميزة الفعل الإرادي وخاصيته تنحصران في المقاومة.

وفي معرض الملاحظات الإكلينيكية تجلت لنا حالة يعجز فيها الشخص عن القيام ببعض الأعمال التي ليس فيها من التركيب إلا تتابع حركات مستطاعة وقد سميت هذه الحالة بفقد الحركة الفكرية ( Apraxie idéatoire) وفي هذا الاسم مسحة التعقيد الذي كان طابع المدارس القديمة في علم النفس. ومن مظاهر الاضطراب عجز عن مزاولة عمل

(٣٩) G, Dumas Tome IV P. 401.

يرمي إلى غاية معروفة له كإشعال شمعة. ويقول أندريه امبردان André Ombrédane إن المريض المصاب بالاضطراب الحركي ينسى تسلسل الحركات الضرورية لتحقيق المراد من الفعل على الوجه المعلوم. وليست هذه الحالة بتعطل حركي ( Apraxie ) ولكنها اضطراب في استعمال الأشياء Agnosie D'utillisation. ويضيف امبردان إلى هذا أنه لاحظ اجتماع الحبسة وفقدان الحركة مع اضطراب في الحالة العقلية.

وقد تضاربت الأقوال في أنواع الاضطراب اللغوي، وتعددت شروحها واتجاهات التأويل التي قيل بها ومرجع التباين في ذلك كله إلى التخبط في فهم أساس الأفعال الإرادية.

لا يمكن أن يفهم الاتجاه الذي يبني شكل الفعل في ترابط أجزائه وتسلسل مراحله إلا إذا أدخلنا العوامل الثلاث من حركة جسمية وصورة ذهنية وبيئة اجتماعية.

وأثر البيئة أو العامل الاجتماعي في اللغة واضح إذ تتجه الألفاظ اتجاهات مختلفة بحسب البيئة، وهناك مجموعات من القوانين تسير عليها اللغات في تطورها ونموها. والمجموعة الأولى من هذه القوانين تقوم على التطور الطبيعي المطرد لأعضاء النطق وهي تختلف اختلافا واضحا بين مصر ومصر. ولا يكاد الإنسان يشعر بهذا الاختلاف إلا بعد انقضاء عصور متطاولة، وكذلك تختلف أعضاء النطق بين أجناس الشعوب. وهذان النوعان من الاختلاف طبيعيان ويرجعان إلى مؤشر اجتماعي محض،

فإنا نشاهد الطفل في كل صقع ينطق أول ما ينطق بحروف تكاد تكون هي أعيانها عند الأطفال جميعاً مثل الغين في المناعة، والحاء عند التألم، والخاء عند الاشمئزاز والفاء عند التعب. ومن المشاهد أن المجتمع يعمل على أن يحتفظ بصوت أو يفقده.

فبعض الأوروبيين يمكنهم النطق ببعض هذه الحروف على الرغم من أن ألسنتهم لاكتها إبان الطفولة، وذلك لأن مجتمعهم يتجنبها. وفي هذا برهان تأثير المجتمع حتى في تكوين أعضاء النطق التي يظهر أول وهلة أنها فسيولوجية محضة.

وأما المجموعة الثانية من القوانين الصوتية فهي لمقاومة عناصر التركيب في الجملة والتمييز بين هذه العناصر للتشاكل والتباين والنقل Métathése وشرح هذه الأحوال يتطلب مشاركة الشعور الإنساني، وبما تفرضه هذه القوانين يتسنى لنا أن نشرح في الكلمة تفاعل أصواتها، وتناوبها وموقعها، وحلول بعضها محل بعض، لا ينظر الأمي العادي إلى الكلمة باعتبارها مجموعة أصوات منعزلة معينة ولكنه يأخذها صوتاً واحداً. فلكل كلمة عنده صوت خاص.

وإن دراسة تطور اللغات لتفيدنا بما تقدمه لنا في شرح أسسها، وممن اهتموا بهذا الموضوع جل اهتمام دولاكروا في كتابه "اللغة والفكر" إذ قال: لا علم لنا بشيء من التغيرات مما يلحق الأعضاء الصوتية من تغيرات بسبب اختلاف الأجواء، وتوازن الجنس، وتنوع البيئة الجغرافية، ومقومات

الحياة. وكذلك الشأن فيما يتعلق بالاختلاف التشريحي للآلة الصوتية بين الشعوب المتباينة. وقصارى ما نعلمه يبعثنا على ألا نقيم لهذا العامل كبير وزن، والنطق مرده إلى التربية والعادة أكثر مما يرجع إلى التكوين العضلي Conformation Organique في استطاعة أي طفل أن يتقن النطق بلغة مجتمع آخر [٤٠].

تتأثر اللغة بعوامل جغرافية وفسيولوجية كتأثير أعضاء النطق بالتطور الصوتي، وتداعي المعاني، وقانون التماثل في تطور الدلالة. وقد حصر دي سوسير De Saussure عوامل التطور في ظواهر اجتماعية. ويقيم الدكتور علي عبد الواحد وافي وزنا كبيراً للظواهر الجغرافية والفسيولوجية والنفسية. وليس عسيراً أن نوفق بين الرأيين بأن نقول إن العوامل التي أيدها الدكتور علي عبد الواحد لا تعمل إلا في حدود القوانين الاجتماعية إذا تيسر اختلاط الشعوب، فيكون للمحاكاة أثر خطير في النشر والنقل والتطور.

لهذا يجب أن تدرس الاضطراب اللغوي وفقا للأسس التي تقوم عليها اللغة في نشوتها ونموها. ويبدو ما تقدم أن العامل الاجتماعي واسع السلطان في شؤون اللغة. وقد لاحظت أن أكثر أنواع الاضطرابات انتشارا وهو التأتأة ( Bégaiement) يرجع إلى عامل نفسي اجتماعي لأن التأتاء يسلم نطقه أحيانا، ولو تتبعنا حالات الإصابة بالاضطراب اللغوي

---

(٤٠) H. De La Croix Le Langage ct la Pensée Part II Chap IV P. 191 ed. 2 Paris 1930

لألفيناها حالات يخاطب الشخص فيها من يعتقد أنه أعز منه مكانة أو يراه أعلى سناً فيضطرب انفعاله وتضطرب لغته على الأثر، وقد ظهر ذلك واضحاً في حالة شاب يضطرب نطقه أحيانا فإذا قرأ بحثاً تعذر عليه النطق ببعض الحروف الحلقية كالحاء والخاء والهاء والقاف. وقد أظهرت له إعجابي بما كتب ورغبت منه أن يعيد تلاوته فإذا هو يسلم من التعثر ولم يعزب عليه أن يلاحظ ذلك في نفسه. فلما حاول تلاوة بحث جديد عاوده التعثر والاضطراب.

ويمكننا أن ننسب هذا الاضطراب إلى العامل النفسي، ولكن الظواهر النفسية نتيجة التأثير الاجتماعي؛ فربما سقنا من حالة هذا الشاب دليل التداخل المحكم بين مختلف الظواهر من جسمية ونفسية واجتماعية.

في ضوء هذا البحث تفهم تعليل جاكسن إذ قال إن الحبسة أثر لانطلاق العمليات الدنيا المعطلة للضبط الأعلى، وهذه العمليات المنطلقة تعرقل عملية الارتجال والاستعمال الإرادي للعلامات [٤١].

على أن هذا التعليل لا غناء فيه، لأن الحبسة كما تدل كثرة أسمائها أنواع مختلفة لاختلاف أسبابها فلو كان هذا هو السبب الوحيد لما نطق المريض نطقا سويا في بعض أحيانه.

---

(٤١) G. Dumas Tome III P. 443

## الفصل العشرون

# العوامل الاجتماعية للفعل الشاذ

تعتبر الجريمة فعلا شاذا مبعثه اضطراب الإرادة لأسباب جسمية أو نفسية أو اجتماعية.

قد يكون الدافع إلى الإجرام جسمانيا كالجوع أو الكبت الجنسي أو غير ذلك من الاضطرابات البيولوجية التي تحدث الانفعال، وتدرك صلة الجريمة بالحالة الجسمية في الضغط الناشيء من الرغبات الشديدة. وهناك نشاط عام بوجه الأفعال توجيها خفيا، ويكون التوجيه سويا إن كان النشاط طبيعيا يلبي رغبات معتدلة لا تخرج عن طبيعة الجسم ولا تتحدى العرف الاجتماعي.

يستغرق الجائع حالة شاذة فينحصر نشاطه في اتجاه واحد، ويندفع في أفعاله اندفاعات قد تعدو الطريق المألوف ويستخدم قوة الجسم أو الذهن ليصيب ما يسد حاجته في أقرب وقت، لا يبالي مصيره ولا يعبأ بما يسمى حق غيره، فيسرق أو يقتل ليستلب. وهنا تتضح مميزات الفعل الإرادي عن الفعل غير الإرادي على الرغم من أن الجرائم قد تكون مقبولة عند مقترفيها أو مبررة بأي نوع من أنواع التبرير. يقوم مرتكبها مدفوعا بإحدى النواحي الثلاث التي تخضع لها من مزاول الأفعال السوية. وإلى هذا النوع من الجرائم تضاف جرائم المصادقة إذ يكون الواقع وقتيا لا

يملك المجرم له ردا ذلك الدافع هو ضعف الإرادة وهو لا يصدر عن العادة المتأصلة في من يفقد كل تقدير لقيم الأخلاق.

وقد يقترف الجرائم أناس أعلياء المكانة في المجتمع، ويمكننا أن نعتبر العدوان الدفاعي ضمن الأفعال الشاذة ذات الصبغة الإجرامية، وإن كان المجتمع لا يسميها كذلك في أغلب الأحيان بحجة أنها خارجة عن إرادة المدافع عن نفسه كمن يقتل مهاجمه إنقاذا لحياته من الهلاك. ولكن القانون لا يراعي من الحقوق إلا حق الحياة وحماية العرض، ويعاقب على كل الجرائم الأخرى التي تجاوز المألوف من الجرائم، وإن كانت الجرائم كلها تحاول أن تلبي رغبات مكبوتة ويشتد حكم القانون كلما كان ارتكاب الجريمة التحقيق لذة لم تدفع إليها الضرورة القاضية.

وقد تنقلب جريمة القتل فضيلة إبان الحروب إذ يصطلح جمع من الناس على اعتبار حالة الحرب مبررة لجريمة القتل دفاعا عن كيان الأمة قاطبة، ولذلك تميز أغلب الأمم بين الإجرام السياسي وغير السياسي؛ فالعامل الاجتماعي يتدخل في تنظيم الرغبات الجسمية إذ يمهد لتحقيقها في أحوال مخصوصة. وكلما كانت هذه الرغبات ملبية للذات فردية تحرج المجتمع في السماح بها، وكلما جاوزت الأفعال دوافع مقتضيات الحياة الضرورية من جهة وخرجت على الاصطلاح الاجتماعي من جهة أخرى كانت مسؤولية الشخص جسيمة. وعامل التوازن بين القوة الفطرية لأفعال الحياة وبين القوة الطبيعية المعاكسة لها من جهة أخرى. وكل من هذين العاملين ضروري، إذا اختل أورث اختلاله اضطرابا في الفعل الإرادي.

فالإجرام صورة صادقة لاضطراب هذا التوازن، وفي أغلب هذه الحالات لا يكون ثمة تدبير أو سابق عزم بل يتم الإقدام على الفعل فجأة ولكن المباغتة في الفعل لا تجزي في نفي المسؤولية عن الفاعل.

وإن الجوع والفقر والحرمان الجنسي لهي الأسباب الفسيولوجية للجريمة وهي بواعث اضطراب الفعل الإرادي. وجميعها تتعدى بالجسم حدود القوانين العامة لاتجاه الفعل إذ يتلبس الجسم بما يشبه حالة السكر. وقد يقترف المخمور من الجرائم ما يشبه جرائم التهور التي يدفع إليها الحرمان، فالخمر تؤدي بشاربها إلى هذه الحالة بحدة الانفعال وضآلة المقدرة على الكف وتعريض الجسم للانفكاك وفقد التكامل.

ومن الاضطرابات الجسمية الباطنة كاضطراب الغدد ما يكشف لنا بعض العوامل الجسمية لشذوذ الفعل. لقد حاول لمبروزو (Lombroso) أن يربط بين سمات الوجه والإجرام. ولكن هذه السمات تختلف باختلاف البيئة، ويتعذر تعيين ملامح خاصة للاستدلال على النزعة الإجرامية، فأوضاع الوجه وأقيسة الملامح إن دلت فإنما تدل على نزعات عامة يشترك فيها جميع الناس في بيئة مخصوصة، ومرجع الخطأ فيما ذهب إليه لمبروزو ناشئ من أنه قصر مباحثه على المجرمين، غير موازن بينهم وبين أبناء جلدتهم من غير المجرمين [٤٢].

---

(٤٢) Crime, Law and social science by J. Michael M.J. A. London 1933 P. 107

وليس كافيا لربط السلوك الإجرامي بالأعراض الجسمية أن يعول على تلك العلائم التي هدت إليها الملاحظة مثل انحراف الأذن أو غلظ الشفة، وربما كان البعض مظاهر الملامح صلة ما للغدد من اضطرابات باطنية كما ثبت ذلك في اتصال الغدة النخاعية بالمرض المسمى بالتضخم (Acromegaly) إذ يبدو الاضطراب في تغير سمات الوجه وخاصة الشفتين.

وكما وضح أيضا اتصال الغدة الدرقية بما يكون من تغير في تعارف الوجه واضطراب في قوة البصر. يقول إذن أن ارتباط السلوك الإجرامي بالعوامل الجسمية مناطه الاضطراب الباطني في إفراز الغدد. ومصداق ذلك ما يُرى في سلوك الأطفال الذين تضطرب فيهم الغدد، فقد أيدت مباحث رينولدز (Reynolds , A, R ) أن كل مجرمي سان كانتين (San Quentin) كانوا مصابين بشذوذ فى الدرقية.

وقد حاول جرمبرج ( Grimberg . L) أن يربط بين اضطراب الغدد والاضطراب الانفعالي المؤثر في السلوك، ويمكننا أن نعتبر هذه الحالات الاضطرارية عامة بين أجناس الناس وإن كانت أسباب الإصابات الفسيولوجية تختلف باختلاف البيئة الطبيعية على حسب أنواع الغذاء ومقادير الكالسيوم في الماء، وان الموازنة بين العوامل الجسمية للفعل الشاذ عند الرجل وبين نظائرها عند الطفل وعند المرأة لتلقي لنا ضوءا على أثر الانفعال في السلوك. إذ يبين لنا اختلاف الشذوذ أن العامل الجسمي يؤثر في تركيب الشخصية كلها فيختل التوازن الانفعالي بضعف الكف والإرادة.

وكذلك حاول س . بيرت ( C.Burt) أن يوازن بين دوافع الإجرام فاستبان ضعف العوامل الجسمية حتى أنه قدرها بنسبة ١٦ إلى المائة، وعوامل الوراثة بنسبة ٢٥ إلى المائة، والعوامل الاجتماعية بنسبة ٣٦ إلى المائة، والعوامل النفسية بنسبة ٣١ إلى المائة، غير أن هذا لا يمنع أن تكون الاضطرابات الجسمية سببا أوليا يتيح الظهور للعوامل الأخرى.

## الفصل الحادي والعشرون

# العوامل النفسية للفعل الشاذ

عسير أن نفرق بين العوامل الجسمية والعوامل النفسية من جهة، وبين العوامل النفسية والاجتماعية من جهة أخرى، قد تعذر على ماكسول Maxwell . J أن يجري هذا التفريق في كتابه الخاص بالجريمة والمجتمع إذ أدمج في العوامل النفسية آثار حالات فسيولوجية كالسكر والنهم وآثار حالات اجتماعية نفسية كالحب والغيرة والاضطهاد. والواقع أن العامل النفسي المحض ليس إلا الانفعال عامة والغضب على وجه خاص.

والفعل يضطرب بانفكاك الشخصية المنفعلة فإن الانفعال هو العجز عن توجيه الفعل وجهة التحقيق فكلما شعر الشخص بالعجز عن القيام بفعل ما، أدركه انفعال، سرعان ما يتمثل في فعل تلقائي يتجه وجهة لم تكن في الحسبان.

وإن المنفعل على أي نحو ليكاد يفقد شعوره، فيسري اضطرابه إلى الحركة والنطق والتفكير وكثيرا ما يعنف الانفعال وإن كان انفعالا طروبا. وذلك نلحظه فيما يكون من سلوك الناس أثناء الأعياد والمهرجانات والفعل الشاذ قد لا يتوجه الشخص إلى إيقاع الإيذاء بشخص آخر، بل

يتعمد بإيذاء شيء أو يصيب صاحب الفعل نفسه.

وقد يكمن الفعل في شعور الحقد لينطلق دفعة واحدة في مظهر الأخذ بالثأر. وقد يقع الانتقام على آخر غير المقصود، ويتوهم الثائر زوال حقده وخمود غضبه، ولكن الانفعال لا يلبث أن يعاوده إذا صادف ما يذكره بحقده وشعور الغضب في نفسه. وهذه الملاحظة تؤيد رأى لوريا في قوله إن الانفعال قد يكون كامناً دفين اللاشعور ليظهر فجأة عند ما يحضر ما يثيره في ظروف مختلفة.

الانفعالات المكبوتة تظهر في الأحلام إذ يشعر بحاجة إلى تأدية أعمال عنيفة كان معرضاً لتأديتها وهو يقظان. وفي أغلب الأحيان تتمثل الانفعالات المكبوتة في الخوف من شيء، فيشعر الشخص أنه مهدد أو تتمثل أفعاله العنيفة في صورة الدفاع، وإذن فالأحلام مصرف للانفعالات ومرجع للتوازن الوجداني الذي يوجه الأفعال. وإن الغالب من الجرائم الفجائية ليفقد بواعثه الكمينة إذا ظهر في الأحلام. ولذلك تكثر الأحلام في حالات الاضطراب الجسم ويخلط المريض بين الحلم واليقظة حين تنتابهم حالات عصبية تؤدي إلى حركات عنيفة غير إرادية.

وهناك أفعال تظهر في أثناء الأحلام كأنها إرادية وهي في أغلب الأحيان طائشة غير موجهة ولا ترمي إلى غاية فعلية؛ فكل انفعال يرمي إلى أن يتمثل أفعالا، فإن ثبت في حالة اليقظة ظهر في صورة أفعال عنيفة بزوارها المنام.

وقد استطاع لوريا أن يدرس صلة الفعل بالانفعال في حالات النوم المغناطيسي بالإيحاء إذ أوحى إلى شخص نائم أنه متردد بين أمرين يتطلب كلاهما فعلا معينا وعليه أن يختار بينهما، وقد قصد بذلك أن يتردد في الاختيار وأن يحار في البيت فيورثه ذلك الانفعال المنشود.

يبدو الانفعال الشديد فعلا إرادياً، وكثيراً ما تبدو الأفعال في الحلم عنيفة لتعبر عن رغبة التخلص من الحيرة. أغلب الجرائم وليدة انفعال شديد من أثر التردد والاصطراع بين مختلف المبادئ والرغائب فلا يقوم الجاني بجريمته إلا بعد تردد يزيد اضطرابه، ويضعف فيه قوة الكف فلا يبالى أن يرتكب الفعل الضار الهدام.

والانفعال قد يتم فجأة وقد يثير انفعالا قديما مكبوتاً فيقترف الجاني جريمة انتقام كان ينوي أن يقترفها منذ عهد بعيد وقد ينفذ اعتقاده وهو لا يعني شخصاً بعينه، كأنه يبغي شفاء حقده بأن ينتقم من شخص كائنا من كان.

وربما توالت الأحلام تمثيل حالات الانفعال التي أوحى بمثلها لوريا إلى المنومين، وقد عالجت أن أقوم بهذه التجربة على نحو من التوسع فيما يتعلق بالانفعال الكاذب في الحلم وبالفعل الشبيه بالإرادي في اليقظة. وبمثل هذه التجربة نقف على صلة الفعل بالإرادة بطريقة تجريبية وطبيعية إذ يتسنى لنا أن نوحي إلى الشخص بأي فعل في حالة النوم الصناعي. ونتتبع حركات المنوم أثناء النوم ثم نسأله عند اليقظة عما بقى لديه من

شعور شبيه بالأحلام الطبيعية، وكذلك نوحي إليه أفعالا ينفذها إذا استيقظ متوهما أنه يقوم بها بمحض إرادته، فيغفل عن الإيحاء وما صاحبه من الصور أثناء نومه.

والنقطة المهمة في هذا البحث هي أن الشخص في سلوكه الموحى به إليه يعتقد أنه ينفذه بمحض اختياره، وبخالص إرادته. وشبيه بهذا الموقف موقف الجماهير التي تنساق إلى عمل إيحاء زعيمها فيؤدي كل فرد ما وجه إليه من عمل دون شعور بالواقع المؤثر معتقدا أعمق الاعتقاد أنه يفعل حرة، ويشبه ذلك أيضا من يؤدي عملا بباعث من عقيدته وإن طريقة لوريا هذه لتبين لنا تلك الصلة بأسلوب تجريبه، فالاتجاه الذي يتخذه الفعل قد يهمه الشخص نفسه وقد حاكى فيه شخصا آخر، فإن رسمه الشخص نفسه قلنا إنه مذعن لإرادة خارجة عن إرادته على أنه لا يشعر بالفارق بين الحالتين، في كلتيهما هو فاعل بمحض إرادته، وإنه لملاق أكبر المصاعب أن يحاول التخلص من هذه الإرادة، إذ لا بد له من أن يجرب وأن يوازن نفسه وغيره ليدرك أن في طوقه انتهاج مسلك غير الذي سلك.

يستمسك الناس بما يأخذون به أنفسهم من السلوك فتتحجر أفعالهم ولا يملكون عنها حولا، شأنهم في ذلك من الوجهة الذهنية شأن المصابين بالفكرة الثابتة، وارتكاب الجرائم فجأة غير ارتكابها بالفطرة على أن مشكلة الإجرام موصولة بمشكلة الإرادة، ويمكن لنا معالجة حلها بتعويد المجرم تغيير اتجاهات سلوكه، فقد ثبت أنه في المكنة فصل الإرادة عن الفعل بوحي إرادة جديدة، وفي المكنة أيضا تغيير السلوك بدافع طارئ

يوجه الأفعال وجهة غير وجهتها الأولى. والطريقة العادية المتداولة بين الناس المحاولة طرد سلوك معين هي طريقة سلبية تدعو إلى التخلي عن السلوك نفسه في محاولة التخلص من الشيء بنفيه، أو بتعبير جبري محاولة طرد ألف بلا ألف، وقد تبين عقر هذه الطريقة في التجريب العملي، وذلك لأن من الخطأ إطراح الفكرة بالفكرة عينها، وحمل المرء على التخلص من حالته بحضه على الإقلاع عن التفكير فيها؛ فلكي تقصى فكرة لا بد من جلب فكرة جديدة تتولى هي أن تحل محل سابقتها أو بتعبير جبري طرد ألف باء. وبهذه الطريقة لا يفكر الشخص في عملية الطرد أو التخلي بل يتم ذلك في صمت وهدوء. فعبث أن تقول لامرئ حذار أن تفعل هذا إن كان فعله حالة متأصلة فيه الميل الغالب إلى الإجرام؛ فكأننا نطلب من شخص ضعيف الإرادة خاضع لبعض التيارات الجسمية أو النفسية أو الاجتماعية أن يبذل مجهودا إراديا جبارا ليقلع عن فعله الإجرامي؛ فأسهل طريقة هي جعل المجرم يقوم بعمل جديد أعني أن نطرد الفعل المرموز له بحرف (أ) بأن نحل محله فعلا آخر ترمز له حرف (ب) ولكن ذلك لا يتحقق إلا إذا توافر ذلك الشرط الضروري وهو أن يكون الفعل الجديد مماثلا للفعل الأول فيما يقتضيه من نشاط إرادي في الأيام الأولى على الأقل.

ولكنه يحق لنا أن نسأل هل يمكننا أن نعتبر الأفعال التي هي من أثر الإيحاء أفعالا إرادية؟ إن سألنا العرف أجابنا أن المحرض على الجريمة يعاقب كما يعاقب المجرم. فالمسؤولية منوطة بالموحى وإن لم يقم بالفعل. نستطيع إذن أن نقول إن الفعل الإرادي يمكن تقسيمه من حيث الصلة بين الفعل

والإرادة ويمكن نسبة الإرادة إلى غير من قام بالفعل. ويسمى ب . جانيه هذه الحالة النفسية بالحالة المنعزلة فكأننا عزلنا الفعل عن الإرادة وهذه الحالات في التنويم المغناطيسي كما تتجلى في النوم الطبيعي أي في الأوقات التي تفصل فيها المراكز العليا عن المراكز الدنيا. ولذلك نرى الخاضع للإيحاء سريع الانفعال مدفوعا للأفعال دفعا قويا يؤدي إلى العنف، وذلك هو منشأ الأفعال الحاسمة الهدامة.

والفاقد لنشاطه العالي يميل إلى بسط الأفعال لا كفها، وتتجه أفعاله اتجاها ثابتا لا تتحول. وقد يحدث الانفعال في الحالات التي يقاوم فيها الشخص بعض الأفعال ويبدأ الفعل الذي يستدعيه الموقف الخارجي فكرة في الذهن وتتطور حتى تصير حركة. ويمكننا استغلال هذه الظاهرة لتخليص المصابين بالأفكار الثابتة والتحجر في السلوك، وقد انتهى ب . جانيه في الفصل الأول من كتابه (L'automatisme psychologique) إلى قوانين استمدها من ملاحظات وتجارب، واستطاع بها أن يقف على الظواهر النفسية خالصة من شوائب المؤثرات الأخرى، وقد حصر نتائج ملاحظاته في قوانين ثلاثة:

١) كثير من الإحساسات والتصورات تصحبه حركات جسمية، فحينما كان الإحساس أو التصور بدت الحركة.

٢) يستقر في الذهن ما يتجلى في الشعور من إحساس أو تطور حتى تخفيه ظاهرة نفسية طارئة.

٣) يبدى الإحساس أو الانفعال حركات وأفعالا مباشرة ميلا إلى التطور والتكامل.

وهذه الأحوال جميعاً تدل على ضعف في الكف وعجز عن وقف الاندفاع إلى الفعل وثمة حالات أخرى تنشئها قوة النشاط النفسي الذي يلتمس له مصرفا كاللعب.

وفي الغالب من الأمر يتميز المجرم باتقاد الذكاء وقد أبدت المباحث التي قام بها فرنالد (M .R . Fernald.) وجدارد (H.H. Gowdard) وأدلر (H .M . Adler) أن أغبياء المجرمين أقل من ٥ في المائة، فالأكثرية من الأذكياء[٤٣] على أن من يضعف ذكاؤه فإنما يكون هذا الضعف في الذكاء التأملي، فالمجرم يتفوق عادة في الذكاء العملي والذكاء الاجتماعي. ولعل هذا التفوق هو الذي يدعوه إلى الجرائم وهي تواجهه بمشكلات. يتطلب التغلب استخدام الوسائل الذهنية. وإن المجرم ليستشعر التلذذ بنجاحها إذا استطاع أن يوجه أفعاله توجيها حسنا يقضي به إلى الغاية المرموقة. وقد تكون الغاية الفرار من الحساب والعقاب، وربما تلذذ المجرم بما يعانيه من عراك طويل مع المجتمع والشرطة على وجه خاص وكثيراً ما يبغي بأفعاله غير الانتقام تعويضاً من سابق الانهزام.

---

(٤٣) Crime - Low and social Science by J. Michael et Mortier J. Adler London 1933 P. 109-110

# الفصل الثاني والعشرون

# العوامل الاجتماعية للفعل الشاذ

يقتضينا تعرف العوامل الاجتماعية للفعل الشاذ أن نتدبر سلوك الإنسان في الحروب وأن نوازن بين العنيف من أفعاله في ساحة القتال وبين فوران انفعاله في عهود السلم، ونحن نستصوب ما قاله لاجورجيت Lagorgette وفريرو Ferréro من أن الحروب والمقاتلات ليست إلا حالة من أحوال المرض الجمعي، وقد يرى بعض البحاث أن الحرب ضرورة طبيعية للمجتمع وقد يحاول آخرون أن يرد الحروب إلى أهداف اقتصادية على أن نابليون قال كما روى عنه تيرس Thiers (١٨١٢) كنت أنا وإسكندر كأننا ديكان هيما دائما على أهمية عراك لا يعرفان لماذا يقاتلان وقد قال كلوستوت Clausewitz إن الحرب ليست بغريزة وإنما هي تدبير من الحكومات [٤٤]. ويرى أورجاز Orga أن أساس الحرب هي رغبة كل شعب في أن يفرض إرادته على غيره من الشعوب بالقوة، ولكن العامل الاقتصادي محرك الشعوب دائما إلى السباق طلبا للتفوق بكل الوسائل. ولا ريب أن الحروب في نشأتها وليدة الحاجات والأغراض والفوائد وأن نارها تندلع إذا دفع إليها الاشتراك في المنافع. وقد أيد تارد فكرة المنطق الاجتماعي وبني على ذلك قوله بمعقولية الدافع إلى الحرب، فما الحرب عند تارد Tarde إلا تعارض إرادتين بين شعبين يريد كلاهما ما لا يريد

---

(٤٤) Revue internationale de sociologie Tome XLVI 1938 P.431

الآخر فتتجسم كلتا الإرادتين في جيش يحارب الجيش الآخر(٤٥) فكأن اضطراب الاتجاه في الفعل وليد التضارب في الرأي، فإن المرء إذا تكونت لديه فكرة القيام بعمل حاولت هذه الفكرة أن تتغلب على فكرة أخرى تعاكسها، ومتى اشتد التضارب حدث اضطراب الفعل. ولذلك يرجع الكثير من حالات الاضطراب إلى النزاع بين رأيين: رأي ذاتي ورأي الجماعي، وما أكثر ما تنبعث أسباب التضارب من العوامل الاجتماعية. وقد بين برجس Burgess . W. E وشو Shaw . R. C أن الأفعال الشاذة تكثر في مناطق معينة من المدينة ولاحظ كلاهما أنها تكثر كلما قربنا من قلب المدينة أي المنطقة الحيوية التي هي مركز الحركة وملتقى الأعمال، فلو تأملنا سبب هذا الشذوذ ألفينا النزاع بين الفرد والجماعة أساسا قويا ودافعا مهما. ولذلك استخلص برجس وشو أن ٤٤٣ من ألف مجرم هم الذين كانوا يعيشون في الميل الأول من وسط المدينة وعدد المجرمين كان يقل كلما بعدت المنطقة عن قلب المدينة. و٥٨ من ألف مجرم كانوا من الجيل الثاني و٢٧ في دائرة الميل الثالث و١٥ في دائرة الميل الرابع و ٤ في الخامس ولا شيء في السادس والسابع. فاندماج المرء في مجتمعات مزدحمة يجعله في حاجة إلى مقدرة كبيرة للتغلب على مصاعب الحياة، وذلك لأن الازدحام يتطلب منه كفاحا شديداً في حاجة إلى التسلية والراحة في أوقات الفراغ، ولذلك يكثر دور اللهو في المناطق المزدحمة من المدن الكبرى ويشعر المتعطلون بحرمان وبحاجة قصوى إلى المال فيندفعون إلى اقتراف

---

(٤٥) Crime, Law and social Science by J. Michael M.J. Adler London 1933 P. 107

الجرائم التي لا يقترفها العاملون المتكسبون الذين يبذلون جانبا من كسبهم في دور اللهو.

وإلى جانب المتكسبين بأشتات المهن نجد أناسا فقدوا السبيل إلى كسب المال إما لاشتمال بعض العال على كثير من الأعمال وإما لضعف جسمي أو عقلي يجر إلى التعطل والتكاسل وإيثار للدعة. بيد أن أولئك المتعطلين، جميعا يطمعون في التمتع باللذات التي يتمتع بها العاملون فتراهم يقبلون المهن السهلة الهيئة ويبتغون الوسائل التي لا تكلف كبير مجهود. وأولئك يستهدفون للانحلال الخلقي وتهيأ نفوسهم المقاربة أي عمل تطلعا إلى المال. وبذلك ينتشر الفسق وما يتصل به و يتيسر الاتجار في المخدرات وما إليها من السلع المحرمة. ويحاول آخرون كسب المال بالعنف ولا يبذل الشخص مجهودا فيهفو المرء إلى أن يخاطر بنفسه دون أن يقنع بتوزيع جهده على الأيام وذلك ميلا منه إلى اتخاذ الشدة في سلوكه ليشعر نفسه بوجوده ويشعر غيره به.

وبالدراسة الدقيقة الأنواع الجريمة ومباعثها الاجتماعية يتضح لنا العراك بين المرء والمجتمع وكيف تصادف حالات نفسية خاصة وهي تمهد الطرق للقيام بفعل. ويتجه النشاط النفسي والإرادي في المجرم إلى التغلب على الحواجز التي يقيمها المجتمع دون الإجرام. ولا يكون الفعل عنيفا إلا إذا خابت الخطة التي وضعها المرء ليقوم بعمله من غير اصطدام. ولا يستطيع المجرم في أغلب الأحيان أن يقوم بالجريمة وحده، فيتخذ له شريكا ينفذ فكرته أو يقاسمه تنفيذها. وقد فصل القانون أدق تفصيل موضوع

الاشتراك في الجريمة، لأن الاشتراك في الأفعال العنيفة قد يكون انقيادا لعاطفة مفاجئة، في هذه الحالة يعتبر كل امرئ مسئولا عن عمله كأنه أراده من تلقاء نفسه وقام به مدفوعا خاص إرادته. ويرى الأستاذ على بدوي أن الأفعال التي يقوم بها أشخاص مجتمعون تحت ضغط المجتمع ويقومون بها بطريقة نائية يجب أن يكون عذرا مخففا إن لم يكن معفيا من المسؤولية [٤٦] وإذا كان المجتمع هو الذي يعاقب أو يعني فإن كل جريمة تقوم على عوامل اجتماعية إذ يقترف المرء جريمته مفكرا في المجتمع الذي قد يدينه أو يبرئه ويختلف حق المجتمع في العقاب باختلاف الاعتبارات الفلسفية فإن كان المجتمع يعتبر الشخص حرا مختارا في كل أعماله فإن المسؤولية تنحصر فيه وحده لا يشركه فيها شريك وتلك هي المسؤولية الفردية التي سماها الأستاذ بدوي مسؤولية أدبية. وفصل الدكتور علي عبد الواحد وافى تطورات المسؤولية وفقا للتطورات الاجتماعية وبين المراحل المختلفة التي مرت بها المسؤولية لتصل إلى الاعتبار الحديث وتضاربت الآراء حول القول بفكرة الوضعية الحديثة التي تقول بالجبرية في الإجرام. وعمم فري Ferri فكرة المسؤولية وأشرك المجتمع مع الفرد في تحمل أعبائها لأن الإرادة خاضعة لكل التيارات الاجتماعية التي تؤثر في النفس وتحدد سلوك الشخص.

ظهرت المسؤولية بداية مثل القانون في مظهر خارجي Aspect Objectif فلم يكن يعرف إلا في صورة العقاب الخارجي المادي الذي يختلف باختلاف الشعوب وباختلاف الجريمة، ففي الشعوب البدائية التي

---

([٤٦]) الأحكام العامة في القانون الجنائي الجزء الأول في الجريمة ص ٢٣٧ – ٣٣٨

تحكم بالرأي يقوم الحكم على النزعات الدينية، ولا ينظر إلى نوع الجريمة وأثرها وباعتها في نفس المجرم وإنما يكتفي للحكم بمعرفة نوع الجريمة هل هي معصية Sacrilége أو لا، فإن كانت معصية فهي رذيلة في ذاتها ورجس لا بد من هجرها. وكانت الجريمة تشمل عشيرة مقترفيها إذ كانت المسئولية أولا كلية collectif فإن صدر من امرئ فعل شاذ إجرامى كانت القبيلة كلها مسئولة أمام القبيلة التي وقع الاعتداء على أحد أفرادها. قد أخذت المسئولية تتناقص شيئا فشيئا على الأيام حتي انحصرت في مقترف الجريمة وحده. فأصبحت المسئولية فردية ولا ريب أن هذا التغير الذهني في الاعتبار والحكمساير تطور المجتمع كزوال النظام القبلي وما إليه.

وقد تطورت المسئولية تطورا آخر مرافقا للأول وهو الانتقال من الصفة المادية إلى الصفة التجريدية، فلم يكن الفعل الشاذ يعتبر جريمة في الشعوب البدائية إلا إذا كان له أثر مادي. وكان هذا الأثر هو الصلة الوحيدة التي تربط الجريمة بصاحبها، وقد تخلو الفعل من الأثر المادي كالمساس بشيء مقدس [٤٧] ولكنه يعتبر نتيجة سيئة والدليل على ذلك معاقبة من كان يمس المقدسات وإن كان غير عامد، وكذلك لم يكن التكليف شرطاً في العقوبة فكان العقاب يقام على الجانبين والأطفال والحيوانات. وما أوسع شقة الخلاف بين ذلك وبين ما نحن فيه اليوم من تتبع دوافع الجريمة والبواعث التي تهيئ ظهورها. وهذه الدوافع والبواعث تختلف باختلاف أحوال الشخص وملابساته الخاصة، وقد أصبح كل من

---

(٤٧) Fauconnet La Responsabilité p. 350.

تحقيق المسئولية وتعيين العقوبة وتشخيصها Individualisation de la peine قائما على تحديد إرادة المسئول وقصده وأحواله النفسية قبل صدور الجريمة وحين صدورها بل إن حالته بعد ارتكابه الفعل لها حظ من الاعتبار، وإن المحكمة لتعاقب من حاول قتلا وأخفق فيه لأسباب خارجة عن إرادته فهو في نظر القانون كالقاتل يعاقب عقوبته وهذا التطور صارت المسئولية مجردة الدين منحصرة في الذات Spiritualistic.

وارتبطت مشكلة المسئولية مشكلات فلسفية واختلف المثاليون والاجتماعيون والواقعيون في أساس المسئولية، ولكن الخلاف فلسفي ميتافيزيقي يرجع إلى فكرهم في حرية الإنسان. يقول المثاليون إن الإنسان حر فإن لم تتوافر له الحرية في أفعاله فهو على الأقل حر في حكمه على الأفعال، وليس العقاب عندهم نتيجة طبيعية للفعل بل تطهير ضروري لتقويم نظام أصابه اختلال. ولا يتعرض الاجتماعيون لمشكلة الحرية والاختيار ويرون أنه إن كانت الإرادة الفردية السبب الأول في ارتكاب الجريمة فبأي حق تعاقب الحواس، ولذلك يقول فوكوني Fauconnet لا تتولد المسئولية من نفس المسئول وإنما هي صادرة من الخارج وهي مرتبطة بالفعل الشاذ متغيرة معه.

وقد حلت المدرسة الإيطالية الواقعية فهم المسئولية ونفت كل سبب نفسي داخلي للفعل الشاذ الإجرامي واعتبرت الإنسان آلة تعمل تحت تأثير العوامل البعيدة والعيوب الاجتماعية واعتبرت المسئولية صلة تربط بين الفعل الإجرامي نفسه والأسباب التي هي بعيدة عن مرتكب الفعل

فكأن الفعل الشاذ مرض يجب القضاء عليه بالتربية والعلاج النفسي. ولكن هذه المباحث كلها تستند إلى الدراسة الخاصة للإرادة وإلى اختلاف درجاتها، فالإرادة الشعر تقوى وتضعف، وليس هذا الاختلاف في القوة والضعف غير التفاوت في درجات تكامل الشخصية، ويمكن الوقوف على هذه الأحوال بدقة ومعرفة ما يمكن أن ينتج عنها من آثار في الفعل والسلوك؛ ففي حالات النقص التام قد يضطرب السلوك بحيث لا يراعي الشخص حتى مصالحه الخاصة. إذن لا يحق للمجتمع أن يتدخل ليطالب بحقوقه، وقد توافر الإرادة على نحو فيتمكن الشخص من أن يسلك سلوكا اجتماعية مستترا. ولكن يسرف في الميل إلى الفردية. ويحاول التخلص من القيود التي تربط الفرد بالمجتمع، وفي هذه الحال يستطيع المجتمع أن يحاسب الفرد على أعماله تلك المسماة بالجريمة ويمكننا بهذا أن نقول إن الجريمة لا تكون إلا ظاهرة اجتماعية نفسية لأنها تعيين الحد الفاصل بين الدوافع الفردية والدوافع الاجتماعية للفعل الإرادي . وقد صرح بذلك الدكتور ج. ريس Ress بقوله إن الجريمة في الغالب نوع خاص من المرض الذهني الفسيولوجي، يمكن أن يقال في كل حالة من أحوال الإجرام إنها علامة مرض اجتماعى[٤٨].

(٤٨) Mental abnormality and Crime J. R. Rees. Mental Variations and criminal behaviour P. 1 Macmillion 1944

## الفصل الثالث والعشرون

# صلة النشاط النفسي بالفعل الإرادي

حين تتكلم عن السلوك لا نستطيع أن نبين العوامل الموجهة تبينا واضحا وإنما نستطيع معرفة الاتجاه لأن العادات المكتسبة قد يكون فيها بعض العوض عن النشاط الإرادي، على أننا لا نملك القول لأن السلوك العادي لا يقوم على توجيه ذهني لأن نشاط الذهن نفسه يتأثر بالعادة وقد بين ذلك ش. بلنديل ( Ch . Blondle1 ) في مقاله : النشاط الآلي والنشاط التركيبي L ' activité automatique et Luctivit synthétique [٤٩] ويبدو لنا أول وهلة أن هناك تناقضا في وصف النشاط بالآلي لأن النشاط ميزته التجدد، والآلة تشعر بالجمود والثبات إلا أن هذا التعبير ينطبق تمام الانطباق على السلوك العادي الذي يقوم على أفعال عادية تبدو خالية من كل نشاط ذهني. وكل الأفعال وإن كانت آلية تتطلب نشاطا يوجهها ويقومها.

وقد بين ش . بلنديل أنه إذا لم تكن هناك غاية تفيد بها الأجسام فإن الأفعال ترمي إلى أية غاية ولو لحق الجسم منها مضرة قد تفضي إلى الموت والمرء يتجه في سلوكه اتجاها عاديا فهو يتجه إلى هذا لأن واجبه الاتجاه إليه بقطع النظر عن قيمته.

---

G. Dumas N. Traité de Paychologie T. IV L.II Chap. I P. 341 (٤٩)

ونستطيع أن مثل هذا السلوك بفعل شخص ينتظر مطية معينة (أوتوبيس أو ترام) ولكن المطية المتجهة إلى مقصده تبطئ عنه على حين تمر به مطايا أخر مختلفة الوجهات، فقد يخطر بباله أن يتخذ أية مطية وإن لم تبلغ به الغاية التي يؤملها وكثيرا ما خطرت على بالي مثل هذه الفكرة في مثل هذا الموقف فشعرت بقوة تدفعني إلى تنفيذها.

وقد لوحظ هذا السلوك في الحيوانات الدنيا كالأرنب إذا وقع في مأزق بأن هاجمته عربة لم يجد عنها محيدا فإنه يواقع الخطر، وفي ذلك يقول ش. بلنديل: إن النشاط النفسي يتجه أبدا إلى غاية نجح في إدراكها أو لم ينجح فهو غائي وإن لم يكن متكيفا، وما يعنينا من قول شارل بلنديل هو رأيه في أن نشاطنا كله ينتظر ثمرة أو يهدف إلى غايته. ومفاد هذا أن سلوكنا خاضع الفكرة تنظم أفعالنا وتوجهها ولكننا إذ نحسب أنه حل مشكلة صلة الفعل بالإرادة بإرجاع توجيه الأفعال إلى الفهم والإرادة نراه يقرر من بعد رأيا آخر لا يقل خطرا عن الرأي الأول، فيصرح بأن الفهم لا يرجع إلى الحالة الذهنية وحدها بل يكون نفسيا حركيا في غالب الأمر ويرى أن هذا النشاط الذهنى مشهور به أثناء انقلاب النشاط الذهني نشاطا عضليا، وكذلك يصبح شعور الشخص شعورا عضليا على وجه عام كما يتجلى ذلك في المواقف التي يفتقر فيها الشخص إلى أن يكون فهمه فهما عضليا محضا لينجح في الفعل، وذلك كله قبل أن يكون قد عرف بذهنه الطريق المؤدي إلى النجاح في السلوك والتكيف.

ومهما يكن من أمر فإن التنظيم والتوجيه وما يسمى بالتعضون

Organisme يظهر في درجات مختلفة ويبلغ أعلى درجة ممكنة ويجب أن نقول في الحالة الأخيرة بأن النشاط المنظر يبدو لنا كأنه مفقود لأنه على الرغم من وجوده يعمل بطريقة آلية أي أن اتجاه النشاط يسهل تكرره.

ولا نشعر بحاجة إلى مجهود إلا إذا كان الاتجاه جديدة أو إذا صدر شيء جديد يعتبر من الموقف الخارجي أو إذا كانت المشكلة مستعصية فلا يكفي القدر من النشاط الذي تعود الشخص بذله لحل المشكلة، وإذن يبدو ما يسمى بالنشاط الإرادي، وعلى حسب هذا الرأي يخضع ظهور النشاط للسلوك، فلا يظهر إلا عند العجز أعني حين يبدأ الشخص الفعل فيحقق فيه فيأتي بفعل آخر. ويتجلى ذلك بوضوح في سلوك الحيوان والفعل الإرادي نتيجة ينتهي إليها الشخص واكتساب في الاتجاهات الجديدة يحتفظ به فيظهر الفعل الإرادي بعد ذلك بطريقة آلية في المواقف المتشابهة.

ويرجع الفرق بين الموقفين أو السلوكين إلى أن السلوك الجديد يحتاج إلى انتباه إرادي بخلاف السلوك العادي الذي يقوم على نشاط مألوف أو آلي فهو يكاد يكون خالياً من الانتباه الإرادي وهو الاتجاه الجديد للنشاط. أوضحت دراسة بك ( A. Pick ) عامل الانتباه والنشاط النفسي في تكوين الفعل، ورد عل ليبمان (Liepmann ) الذي حاول أن يشرح الفقدان النفسي للحركة ( Aprixie ) دون أن يوفي عامل الانتباه حقه[٥٠].

---

(٥٠) A. Pick Gemischte apraxie. Archives de psychologie T 6. 1907 P. 202

وتستطيع شرح فكرة الشعور المجهد في الأفعال الإرادية التي تتمثل في سلوك متكيف مفيد قائم على استمرار النشاط الإرادي في اتجاه واحد وذلك يورث سأما منافيا للحياة والنشاط ويميل بالشخص إلى فقد النشاط وإلى الهبوط المؤدي إلى النوم. وإذا كان الانتباه الإرادي هو تغيير اتجاه النشاط فإنه أيضا يميل إلى أن يكون تغييراً سهلا طوع إيقاع معين، وقد لاحظ شارل فوكس ذلك وصرح به إذ قال: إن الانتباه الإرادي ليس بالوظيفة المستمرة ولكن يميل إلى الإيقاع. وإن أثر الإيقاع باق في جهازنا العصبي وفي تكويننا الذهني.

ويضيف الباحث إلى ما تقدم هذه الجملة التي تلخص كل صلة الإيقاع بالحياة فيقول الحياة إيقاع Life is Rythm [٥١] وصلة الانتباه الإرادي بالإيقاع تفسح لنا مجالا واسعاً لتعرف سير الاتجاه الذهني وعلاقته بالمجهود الذي هو التغلب على السأم. ونلاحظ أن هبوط النشاط قد يكون إراديا فقد يستدعي الشخص الأحلام بنفسه أو يقبل على النوم الذي يعتبر فعلا إراديا. وقد يكون الهبوط غير إرادي في حالات الإعياء الشديد. وأثر الإيقاع في الشعور بالتعب قائم على تنظيم هذا الاتجاه وتوحيد وجهات التيار العصبي. وقد لوحظ أن للموسيقى آثاراً كبيرة في تناقص الشعور بالتعب وقد ظهر ذلك جليا في إقبال الجيش على الموسيقى. وبعض القواد يحرصون ألا تعزف الموسيقى إلا إن قطع الجيش شوطاً بعيداً في المشي وظهرت عليه آثار التعب، ولعل التجربة هدتهم إلى

---

(٥١) Educational psychology Ch. Fox P-313

أن سماع الموسيقى الإيقاعية Marche من أول الشوط يضعف من آثارها إذا عزفت حين يحل التعب. وهذه نقطة واقعية مهمة تدلنا على أن الإيقاع مؤثراً أثراً واضحاً في تنظيم النشاط النفسي والنشاط العضلي، ولوحظ أيضا أن مجرد تغيير الإيقاع يحدث أثرا.

والواقع يؤيد ما قال به فوكس إذ أن طرد الأفكار الثابتة ليس بالأمر اليسير، فأقوم طريق لزحزحة الفكرة الثابتة وإن اشتدت هي إخضاع الانتباه لإيقاع موسيقي ينظم الجسم كله.

وقد ثبت أن أثر الإيقاع في الشعور يذهب إلى حد بعيد بحيث أنه يمكنه أن يمحو أثر الألم الجسمي فقد لوحظ أن الحيوان أو الإنسان في حالات الألم الجسمي الشديد يلجأ إلى القيام بحركات أو بإحداث أصوات إيقاعية، وذلك لما يأنس من الفائدة المحسوسة في التخفيف من أثر الألم.

ولو أردنا التعمق في فهم أساس هذه الحقيقة الواقعية لوجدنا أنفسنا في حاجة إلى الوقوف على صلة الانتباه بالعمليات البيولوجية. وقد حاولت في رسالة الانتباه الإرادي طرق هذا الموضوع تحت عنوان "الاتزان والاتجاه" وأهم نقطة يمكن الإشارة إليها واتخاذها أساسا هي فكرة ألموت سميث في اعتباره البصر أساس النشاط الذهني في إسناده انقلاب تاريخ الحيوان من حيث سلوكه إلى الاتجاه المزدوج للمقلتين. ويذهب سميث إلى أن عملية الانتباه تقوم على اتجاه حركة المقلتين وعلاقة الانتباه بالجسم ككل تثبت لنا في الحالة الوضعية الاتزانية ثبوتها في الحالة التشريحية على حد سواء.

وقد يعترض علينا معترض بقوله: لم لا يشعر الناس جميعا بهذا الشعور ويجدون هذا الأثر عينه بألحان واحدة. وما ينبغي لنا أن نجيب على هذا السؤال بالتخمين فلا مناص من التعويل على التجربة إذ نلاحظ أن الإيقاع الواضح يحدث آثارا فسيولوجية بينة في شكل استجابات حركية. ويتم هذا التحول في زمن قصير، وكلما طال الزمن قلت الحركة وزادت الأفكار والتصورات الأشخاص يختلفون في التأثر باختلاف الإيقاع، وأشار فوكس إلى أن كل شخص يفضل نوعا من الإيقاع كما أن لكل شخص معادلة خاصة تجمع بين قياس درجة الانتباه ومقدار زمن الاستجابة.

ويظهر أثر الإيقاع في الانتباه وفي زمن الرجع والفعل الإرادي، وصلة الفعل الجسمي بالصورة الذهنية تظهر واضحة لأنهما خاضعان للانتباه الذي يتحكم في الاتجاه، ويدل أثر الموسيقى الواضح في الحالات الجسمية على أن تنظيم الانتباه في أحسن إيقاع معين يؤدي إلى تنظيم التيار العصبي، وتظهر من ذلك الصلة الواضحة بين الاتجاه والانتباه والفعل أو بعبارة أخرى بين الإرادة والفعل.

## الفصل الرابع والعشرون

# النشاط النفسي في الفعل الإرادي

لكي تتضح لنا صلة الإرادة بالفعل لا مناص لنا من ملاحظة مظاهر النشاط النفسي المختلفة. يقوم الفعل الإرادي كما يقول بيك A.Pick على عمليات كثيرة أهمها:

*أولا:* تصور الغاية ( Zielworsellung )

*ثانيا:* ارتباطات مختلفة وتوجيهات مركزية خاضعة لهذه الصورة الافتراضية وهي الفعل.

*ثالثا:* تصورات عضلية حركية.

*رابعا:* انتباه.

*خامسا:* وظيفة الكف التي تدأب عاملة في كل مرحلة من مراحل النشاط الإرادي.

ويجب أن نتتبع تطور النشاط المتصل اتصالا وثيقا بالعضلات، ومختلف الحالات الجسمية، إلى أن يتحول إلى حالات مجردة يتم فيها الفعل الإرادي في الذهن. وقد اعتدنا أن نسميها حالات نفسية أو حالات

شعورية. واللغة هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى حالات نفسية مجردة توصف عادة بالحالات الداخلية.

ولكن طريق اللغة لا يفي دائما بالمطلوب لأنه يقدم لنا صورا يعبر بها الشخص عن حالات شعورية مختلفة، ولذلك اضطر بعض علماء النفس إلى استعمال التعبير الرمزي بدلا من التعبير البياني. ويتطلب قياس النشاط النفسي المتصل الدائم حالات جسمية لتكرار التجربة حتى تصل إلى النشاط النفسي وتميزه عن النشاط العضلي الفسيولوجي لأن التكرار يقدم لنا طريقة العمل أو طريقة التوزيع للنشاط فإن بعض الأشخاص يبذلون كبير مجهود في مبدأ الأمر دفعة واحدة ثم نراهم فجأة قد نكصوا عن بذل المجهود.

وهناك أشخاص يبذلون نشاطهم بطريقة تدل على حسن توزيع بحيث أن الشخص يبذل مجهوده بالتدريج وبالتعادل المتقارب بين مختلف المرات وهناك أشخاص يبذلون مجهودا قويا فيضطرون بعد ذلك إلى بذل مجهود ضئيل، لهذا كان لعامل التكرار أهمية في تحديد النشاط النفسي وتمييزه عن النشاط العضلي.

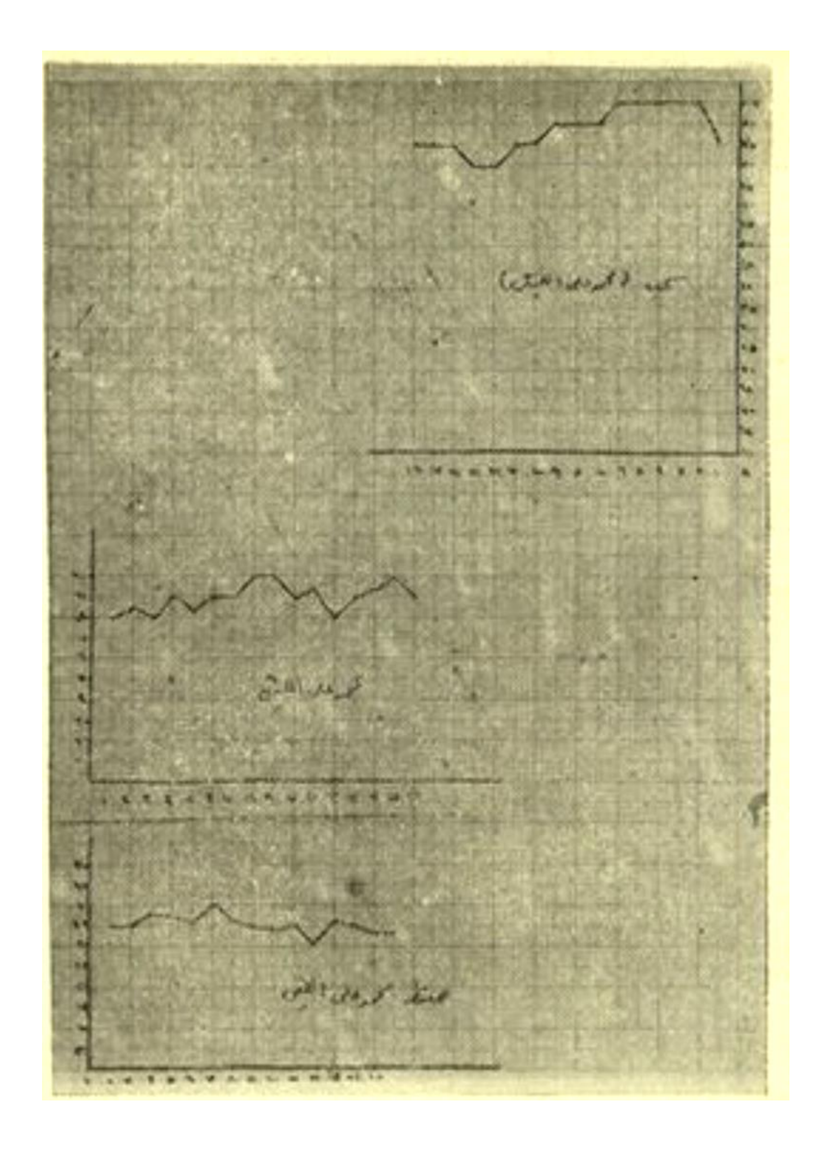
وهناك ما يدعونا إلى دراسة النشاط النفسي باعتباره فعلا يشترك في القيام به مختلف أجزاء الجسم حتى لا تدخل عوامل التعب الخاصة بالعضو. لهذا السبب آثرت استعمال الديناموجراف في اليد اليمنى أو اليسرى منفردتين. وكذلك قست مجهود عضلات الكتفين مع النصف

الأعلى من الجسم وكررت ذلك الفعل جامعا بين مختلف درجات المجهود لتبين لي بأي طريقة يتوزع النشاط.

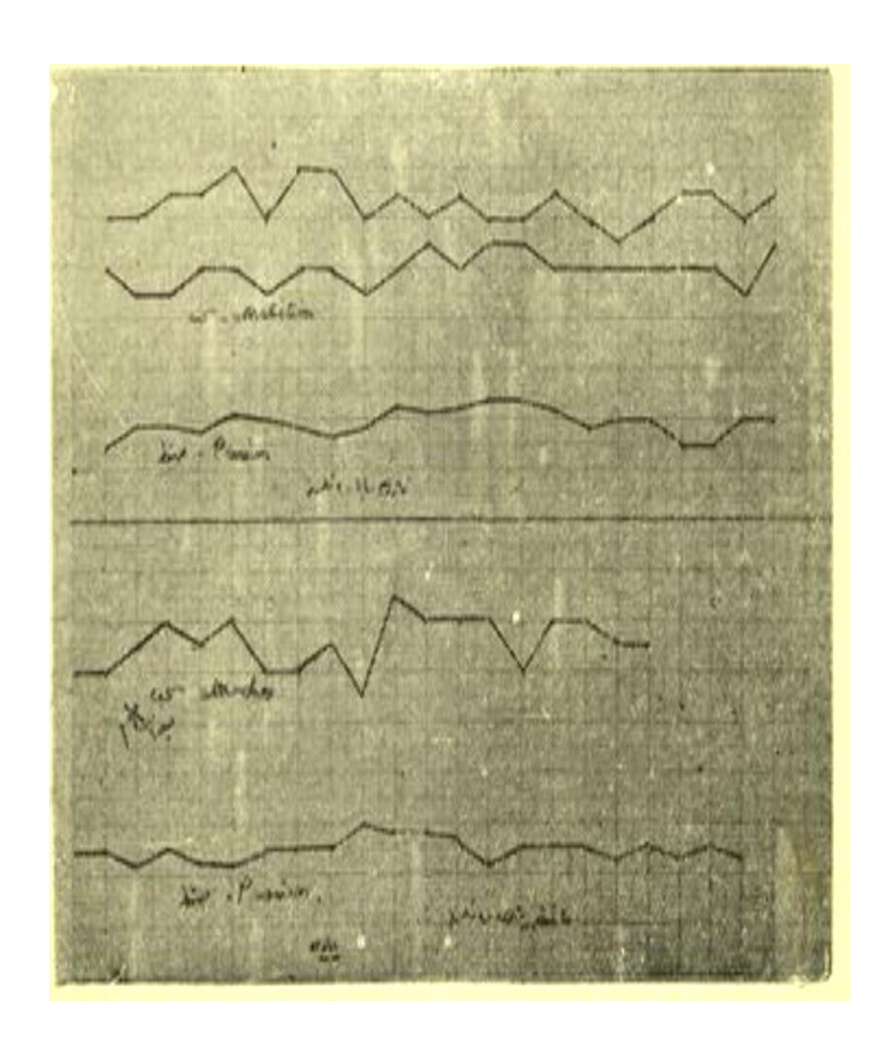
وقد أمكن التوسع في الموازنة بين مختلف درجات توزيع النشاط في الجسم كله بحيث نشرك عضلات الذراعين والكتفين وعضلات الساقين على أن يكرر الشخص بذل المجهود مرات كثيرة لكي يستبين لنا منحنى التعب. وبالتجارب المترادفة عرفنا أن لكل شخص منحنى خاصا يختلف باختلاف الأحوال.

ويبقى علينا بعد ذلك أن نوازن بين شتى المنحنيات إن كانت كلها منسجمة لم يبق شك في انسجام النشاط النفسي للشخص وإن كانت مضطربة لم يبق شك في أن النشاط النفسي يتفشاه الاضطراب.

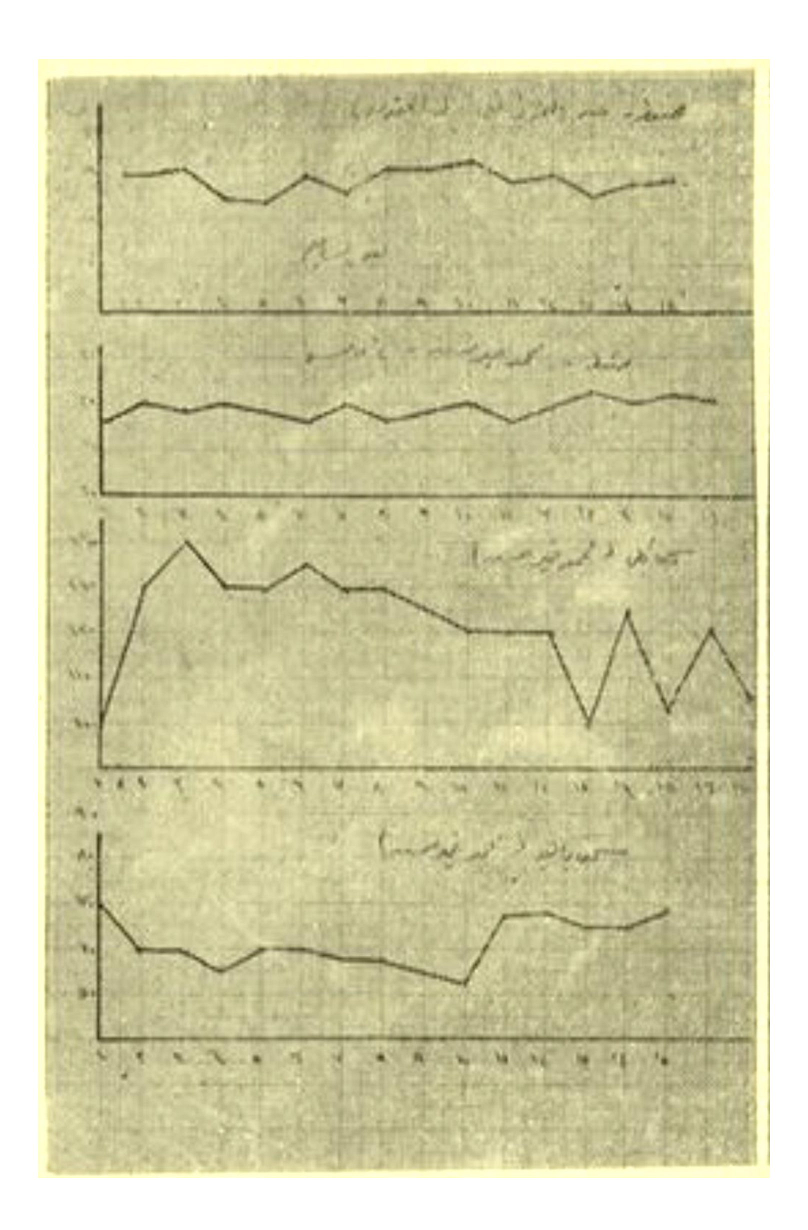
وقد برهنت التجارب على أن السلوك المضطرب يتفق مع المنحنيات المضطربة وتمثل الرسوم ٢ و ٣ و ٤ نماذج من المنحنيات أخذت لأشخاص مختلفين في الحالات المختلفة. فالمنحنيات المنسجمة التي أخذت لشخص في نواحي الجسم المختلفة وفي أوقات عديدة تدل على أن نشاطه النفسي معتدل متوازن



رسم ٢



رسم ۳



رسم ٤

**بخلاف الحالة عند الأشخاص الذين يعطونا منحنيات مضطربة ذات انحدارات طويلة فإنهم في أغلب الأحيان مضطربون في نشاطهم النفسي.**

ولزام أن نوازن بين المنحنيات المعبرة لبذل المجهود بالعضلات المختلفة في الجسم حتى لا يكون اضطراب واحدة منها راجعا إلى ضعف موضعي. فإذا كانت المنحنيات خفية اتخذنا وسيلة أخرى للتجربة هي الجهاز المسمى بالإرجوجراف ولقياس التعب والعمل قد فكر موسو في طريقة استعمال اليمنى واليسرى للموازنة بين النتائج والوقوف على عامل النشاط النفسي في توزيع المجهود.

ويعتقد قوم أن نتائج هذه التجارب العملية لا تفيد كثيرا في الميدان النفسي، ولكن الواقع أن تجارب الديناموجراف والإرجوجراف ذات أهمية كبرى في علم النفس لأنها تبين طريقة توزيع النشاط الجسمي، وهذا لا يمنع من أن تكون طريقة التوزيع وبذل النشاط نفسية محضة. فهناك أشخاص أقوياء تجعلهم طريقة توزيعهم السيئة للنشاط يشعرون بالتعب والهبوط وذلك ما يسمى بمرض النوراستانيا. ونلاحظ في حياتنا اليومية أن حمل الثقل يكون سهلا أو صعبا حسب الفكرة التي تكونها عن وزنه بالقوانين المدركة قبل مباشرة الحمل.

وقد خصص ف. ريماتي (F.Rimathé ) لهذا الموضوع بحثا قيما درس فيه توزيع النشاط بين عضوين في وقت واحد، وصاحب هذه الفكرة هو كلاباريد إذ قال بها منذ سنة ١٩١٧موازنا بين مجهود النشاط في عضو واحد وبينه في عضوين. فلاحظ أن الأول أقوى من الآخر وأنه يزداد حين

لا يشرك في العمل عضواً آخر [٥٢].

وقد أثار كلاباريد المشكلة النفسية الآتية: كيف تتصرف الإرادة في حالة الإمداد لمجهود حركي مزدوج الاتجاه وفي الإمداد بآخر لاتجاه واحد.

ولكن غاية هذا البحث كانت محصورة في دراسة الصلة بين فقدان المجهود وبين نصفي المخ الكرويين هل يشتركان في العمل أو يستقل كل منهما بعمله.

وقد أثبتت التجارب التي أجريت في معمل علم النفس بجامعة فؤاد الأول أن المجهود المحصور في جانب واحد من الجسم يزداد حين يكلف عضو بذل مجهود في الجانب الآخر.

فقد قدمت لأشخاص مختلفة استعداداتهم عملا ليسجل على آلة الإرجوجراف فلما وصل الشخص منهم إلى مرتبة التكيف واستقر في بذل المجهود على مستوى معين طلبت إلى كل منهم القيام بعمل يتطلب بذل مجهود، فلاحظت أن الإرجوجراف يسجل ارتفاعا في نشاط الجانب الآخر.

وأظهر تكليف الشخص بالقيام بعمل ذهني أثناء بذل المجهود العضلي اضطرابا في التكيف بالمترنوم فإما أن يقف الشخص عن بذل المجهود وإما أن يزيد نشاطه في العمل كما ثبت ذلك بالتجربة.

والموازنة بين هذه التجارب وتجارب ريماتي ( Rimathé ) تبين أن

---

(٥٢) Contribution à L'étude de L'ergographie Par Frédéric Rimathé Archives de Psychologie Tome 19 1925 P. 129

للانتباه دخلاً كبيراً في تغيير كمية المجهود، وقد تختلف النتيجة في الملابسات المشابهة لاختلاف النشاط الداخلي أي أن النقص في نشاط مجهود عضو حين يعمل عضو آخر راجع إلى أن الانتباه يتجه ويتركز في هذا العضو الآخر فينخفض ذلك النشاط في العضو الأول.

وقد يزيد النشاط كما ظهر في تجاربنا لأن الشخص حينما يطلب منه أن يقوم بعمل عضوى آخر ويخشى أن يؤثر ذلك في مجهوده وينقص من نشاط العضو الأول لذلك يتحمس ويجمع الجهد، وقد فطن بييرون بطريق التأمل والملاحظة الذاتية فيما يتعلق بالانتباه نفسه إلى أن التركيز يزداد حين يحاول مقاومة الضوضاء.

وهذه النتائج توحد بين فروض ريماني وبين الأسس التي يقوم عليها هذا البحث وتتلخص هذه الفروض فيما يلي:

١. كل فعل إرادي منوط بالانتباه.

٢. يضعف الانتباه الموزع بين حركات إرادية.

٣. في العمل المشترك يوزع الانتباه حتما بين حركتين أو حركات تستنفد موفورا من النشاط.

أفنستدل بهذه النتائج على صلة الفعل الإرادي بالمعنى الذي فهمه كلاباريد أم نأنس فيها تأييدا للوحدة التامة بين الفعل والإرادة، فلا تميز بين النشاطين النفسي والجسمي.

لم تعطنا تجارب ريماتي إلا فروضا كما سماها هو نفسه، وهذه الفروض بطل بعضها وبقي بعضها في مرتبة الشك. وفيما يختص بتوجيه كلاباريد لهذه المشكلة لم يتسن لنا الوصول به إلى حل واضح لأنه وحّد بين مشكلة التعب ومشكلة الإرادة وردها إلى تنازع داخلي وانقسام في الشخصية. ويقول كلاپاريد بتقسيم الفعل تقسيما مدرسياً إلى فعل إرادي وفعل غرضي (Intentional Act ) على أن مختلف الاتجاهات في تقسيم الفعل إلى منعكس وغريزي وذكي وإرادة ليست تقسيمات وهمية تتجافى عن الواقع فهي تناقض أهم قانون في علم النفس وهو فكرة نشاط النفس الموحد لكل العمليات النفسية. وأكبر وظيفة للنشاط النفسي تظهر في تنظيمه للحركات ليكون منها فعلا، فكل فعل يفيض نشاطا نفسيا موجها للحركات وموحدا بينها ليركب منها فعلا. ومبلغ الفرق بين الأفعال هو مقدار النشاط النقي المبذول. ويمكننا بالتجربة أن نثبت وضعية النشاط النفسي وأن نتبع مراحله صعودا وهبوطا وأن نقيسه في حالات الهبوط الناتج عن المرض أو الإرهاق أو السأم أو النوم الطبيعي أو الصناعي.

وقد أمكن استخدام تقطع الضوء على حسب إيقاع معين مع دقات سمعية خاضعة لذلك الإيقاع لإحداث هبوط بين في النشاط. وإن الإيقاع المتفاوت من سريع إلى بطيء ليعطي الشعور صورة الهبوط النفسي، وبهذه الطريقة يتسنى لنا التحكم في النشاط وإعادة التوازن بعد الصدمات الانفعالية الشديدة وذلك يختلف باختلاف الحالات فإما أن يكون بطيئاً وإما فجائياً.

وأعتقد أن الشلل الإرادي المصاحب للضغط الانفعالي أو الناتج عن الملانخوليا يمكن مقاومته بالإيقاع. وقد لوحظ أن شدة الانفعال التي تكون في حالات المانيا ( Manie ) تؤثر في الإرادة مثل الأثر الذي تحدثه الملانخوليا. ويكون التوازن عن طريق الهبوط بإخضاع الشخص لإيقاع بطيء إن كان الانفعال شديداً والتوتر عالياً، فإذا كان العكس احتاج التوازن إلى إيقاع سريع. وقد اكتشف العامة أثر الإيقاع في الحالات النفسية عموما وصلته بالنشاط النفسي على الخصوص. وظهر ذلك في إقبال النساء المتعرضات للاضطرابات الجسمية والعصبية على حفلات الزار.

وقد ناهض برجسن فكرة إمكان قياس الحالات النفسية قياساً كمياً وكان من بعض النواحي مصيباً في اعتراضه ذلك لأن المحاولات كانت تتجه إلى قياس الحالات النفسية منفردة مثل الألم واللذة والحزن والفرح. ويرجع الفضل لبرجسن في إثبات فكرة التداخل في هذه الحالات وترابطها وتكاملها، ومن الخطأ استعمال المقياس العملي في الحالات النفسية لأن القياس يتطلب العزل وهو مستحيل في الميدان النفسي.

ويختلف الأمر كل الاختلاف إن حاولنا أن نقيس النشاط النفسي في تكامله وفي وحدته. وقد اعترف برجسن في كتابه "معطيات الشعور الحالية" التفاوت في شدة بعض الحالات النفسية، وضرب أمثلة كثيرة ليشرح بها عمق الإحساسات كالفرح والحزن باعتبارهما من الحالات النفسية

الصافية[٥٣].

وبعد أن أثبت أن الفرح العميق الحب لا يكون حالة نفسية منعزلة محصورة في مكان ما من التنفس لتنتشر بعد ذلك شيئا فشيئا، ولكن تحليل برجسن يرجع الفرح في مستواه الأدنى إلى اتجاه الشعور نحو المستقبل وليست حالات الفرح الدنيا غير التخلي عن الحالات الماضية والمشاكل المتعلقة بها وإن مقدارا كبيرا من النشاط النفسي يستهلك في حل المشكلات المتعلقة وفي إرجاع التوازن للعاطفة المضطربة.

ويقول برجسن إنه ينتج من اتجاه حالاتنا الشعورية نحو المستقبل شبه نقص في الجاذبية مثل الحالات الشعورية، فإن الأفكار والإحساسات تتابع بالغة الإسراع. وفي حالة الفرح القصوى تكتسب إدراكاتنا وذكرياتنا صفة غير خاضعة للتعريف، شبيهة بالحرارة أو الضوء وتكون جديدة إلى حد أنها في بعض الأوقات حين ترجع إلى نفوسنا نشعر بنوع من الدهشة يشترك فيها كل كائن حي.

وينتهي برجسن إلى القول بوجود أنواع مختلفة من الفرح ومراحل تتفاوت بالكيف وتلائم مراحل حالاتنا النفسية. ولو تأملنا هذا الرأي لوجدناه لا كنه له إذ يحاول أن يميز بين مراحل الفرح في حين أنه يثبت صفة لا يمكن التعبير عنها وهي صفة الكيفية. وإن برجسن ليعمد إلى

---

(٥٣) Essai sur les données immédiates de la conscience H. Bergson 1936 P. 7.8

تعقيد المسألة ليختلق هذه الحالة ويتحدث عن الرجوع إلى النفس ليشعر بذلك النوع من الدهشة المشتركة بين الكائنات الحية. وقد عول برجسن في هذا التفكير على الحياة اليومية والتأمل العادي.

واعتمد في شرحه لعملية الاختيار رمزا مكانيا يرسم طريق النشاط النفسي وذلك بتخطيط يبين كيف ينتقل النشاط النفسي ليتحول إلى فعل إرادي، ولكنه يستدرك على نفسه فيهدم ما بنى معتذرا بأن شرحه المكاني كان رمزاً لا تصويرا. وقد أثار بشرحه هذا مشكلة منهجية لم يستطع التخلص منها في يسر.

وقد اعترف برجسن بأن رمزه هذا لم يكن قادرا على إفهامنا ما يريد من الكشف عن سير النشاط النفسي، وفي الحق أن برجسن لم يزد على تشويه الواقع وتصويره تجاه النشاط النفسي ومراحله كما تصور جيشا على خريطة.

ومن العجب أن يظل برجسن معتقدا أنه وقف على تكون قصد الأنا في كل مراحله إلى أن يظهر الفعل المنتهي. ولم يستطع برجسن الخروج من هذا المأزق إلا بالفرار من الملاحظة اليومية إلى "الحفر الميتافيزيقي" باحثا عن الأسس البعيدة للعملية النفسية مع أن عملية العزم والانتظار والاختيار قائمة على إدراك معنى الزمن والديمومة طوعا لرأي برجسن. وإدراك الديمومة يتطلب تتابع الحالات النفسية وتفاوتها في الوضع في مراحل الذاكرة والنسيان.

وقد بذل برجسن جهدا جبارا ليبعد الحالات النفسية عن التقدير الكمي، ولذلك تراه يذهب بعيدا في تعليل ميل العلم إلى القياس النفسي ويلح دائما في إرجاع العمليات الزمانية إلى المكان. وهو يقطع الصلة بين المدة والديمومة والتعيين الإرادي وبين العالم المحسوس وما إليه من المكان. وسر هذا الموقف الغريب ميل برجسن إلى الفصل بين الحالات النفسية والحالات الجسمية. وقد ظهر ذلك بوضوح في فهمه للذاكرة وتقسيمه إياها إلى جسمية ونفسية.

وهذا الموقف الفلسفي يختلف عن النظرة العلمية الحديثة التي تقوم على التكامل التام في الإنسان والاتحاد الطبيعي بين الجسم والنفس ويصرح برجسن بأن العلم فرق بين العنصرين الامتداد والديمومة لدراسة الأشياء الخارجية وأنه في تقسيمه كان ميالا إلى المكان، ويقترح برجسن أن يبقى هذا التقسيم نفسه مع الميل إلى الديمومة وذلك لدراسة الحالات النفسية في أثناء التكون.

ولكننا نعلم أن المنهاج الطبيعي القائم على هذا التقسيم لا يلائم موضوع علم النفس الذي يتطلب التكامل المتساوي بين العناصر كلها ومنها التآزر التام بين الناحية النفسية والناحية الجسمية. وإنه ليتعذر فهم الحالات النفسية مفصولة عن الفعل والفاعل ومجال الفعل، ولا بد مع اعتبار الديمومة من اعتبار المكانية ليسوغ لنا أن نكنه الفعل الإرادي.

# الفصل الخامس والعشرون

# التركيب النفسي والإبداع الشخصي

لو تأملنا عملية الكبت التي يرجع إليها فرويد الكثير من الاضطرابات النفسية لوجدناها عملية تحليل الشخصية، ويظهر انحلال الشخصية في مواقف التردد والحيرة في الاختيار بين أشياء متساوية في القيمة، وكثيراً ما يحدث التردد الطويل شللا إرادياً يعطل كل الأفعال، وكلما أقدم شخص على مشروع مهم يحتاج إلى تفكير تظهر عليه علامات التردد في كل أفعاله اليومية.

ويضطرب السلوك أيضاً عندما تكون لدى الشخص مشاكل كثيرة غير منهية، ويؤجل الشخص حلها وتتراكم لتعمل باستمرار في نفسه وتمتص من نشاطه النفسي فتقل كمية هذا النشاط في الخارج ويترتب على هذا هبوط عام في الانتباه والنشاط النفسي الجسمي، وقد أثبتت بعض الاكتشافات العلمية أن الذهن يعمل بكيفية مستمرة وأن حلول بعض المشاكل الدقيقة قد تظهر فجأة في اليقظة وبعضها الآخر يظهر في الأحلام وعندما تكون المشاكل اللاشعورية كثيرة وتعمل في الخفاء للوصول إلى حل فإن آثار نقل النشاط اللازم لهذه العملية تظهر في اضطرابات جسمية ونفسية. وحالات الهبوط النفسي والجسمي ترجع كلها إلى هذا الموقف الشاذ الذي يقفه بعض الأشخاص من مشاكلهم اليومية فتأجيلها لا يحلها

بل يعقدها والفرار من مواجهتها لا يخلص من القلق المتزايد زيادة واضحة كلما تكاثرت المشاكل وقد تظهر الآلام فلا يعرف الشخص مصدرها ظناً منه أن مشاكله المكبوتة قد تلاشت آثارها.

ووظيفة العالم أن يبرز من جديد مصدر القلق والآلام ويساعد الشخص على حل مشاكله أو التخلص منها بالتخلي عنها والرضى عن عجزه، وسميت عملية البحث عن هذه المشاكل اللاشعورية بالتحليل النفسي، فلا شك أن اسم التحليل ينطبق تماما على هذه العملية التي تقتضي استرجاع الحالات النفسية الماضية. نترك للشخص حرية الكلام بعد إشعاره بالطمأنينة والمشاركة الروحية وبتخفيف القيود الأخلاقية التي يقوم عليها النقد واللوم. ويحاول المحلل أن يتحد اتحاداً تاماً بالمريض بتركيز اهتمامه وانتباهه في كل ما يصدر عن المريض ويكون هذا الموقف مشجعة للمريض على أن يذكر كل فشل تحمله في حياته ويدعوه ذلك إلى الشكوى من ضعفه أو من صعوبة المشاكل التي واجهته في الحياة.

### تكامل النشاط النفسي:

وليس التحليل النفسي كل شيء في العلاج النفسي فالتحليل النفسي مرحلة أولى تطلعنا على كل ما كان يمتص النشاط النفسي في داخل الشخص وما كان يعوقه عن مسايرة الأفعال الضرورية للتكيف في الخارج وما كان سبباً للهبوط والقلق والحزن، لقد قيل إنه يكفي أن تصير بعض العقد اللاشعورية شعورية ليتخلص المريض من آلامه النفسية،

ويحاول البعض أن يشرح هذه الحقيقة للمريض ويقنعه بسلامتها وعندما يعبر الشخص عن حيرته وتساؤله فيقال له هذا قانون نفسي وقد يؤثر المحلل بطريق الإيحاء فيقف عند مرحلة التحليل ويكتفي بإبراز المشاكل المكبوتة ويترك المريض يعاني مشكلة الكفاح، وقد يسلك الشخص مع مشاكله نفس المسلك القديم ويحل المشاكل بالكبت والتأجيل لتعود الآلام إلى الظهور بعد مدة وجيزة من التحليل الأول.

ودلت التجارب العديدة أن التحليل النفسي وحده لا يخلص الشخص من الآلام التي كانت تؤلمه فهناك عمليات أخرى أدق من التحليل يجب على العالم النفسي وحده مباشرتها. إن النفس بطبيعتها ميالة إلى التحليل وكثيراً ما تظهر المشاكل والعقد من نفسها في أحلام النوم أو في أوقات الفراغ في صورة أحلام اليقظة وكثيرا ما تظهر فجأة من نفسها دون أن يثيرها أي سبب مباشر.

أبدى شخص شكوى من ضيق وحزن وهبوط عام ينتابه بصورة دورية، وصار يخشى قرب الوقت المعهود لهذه الآلام، وحاول التخلص منها بكل أنواع التسلية ليفر منها ولكنه لم يفلح في كل ذلك، وعندما حلل تبين أن الشخص يشكو من الفراغ، وأنه حاول مرات ترجمة كتاب إنجليزي The Meaning of Meaning وتألم عندما شعر بعجزه من أول نظرة، فلم يوفق في إيجاد عنوان عربي ملائم للعنوان الإنجليزي، وحاول بعد ذلك أن يتعمق في اللغة الإنجليزية مدة شهر وانتقل إلى مشروع تعلم اللغة الإسبانية وأحضر القواميس والكتب ودرس يوما واحداً ثم انتقل إلى

مشروعات أخرى، وهكذا إلى أن ظهرت آلامه واضحة واضطرب سلوكه وشلت إرادته.

فالذي حصل أن هذا الشخص كان يحضر كتبه ليدرس لغة ولا يدرس إلا يوماً واحداً ولكنه يستمر محتفظاً بنية العمل مدة شهرين أو أكثر ويأتي كل مساء ويرى الكتب على مكتبه فيشعر بالفشل والنقص والتفريط وينام بعد ذلك، والغم يسيطر على نفسه، ومضى مدة ستة أشهر في هذه الحال دون أن يبت في أمره بل بقي دائماً متعلقاً بمشروعاته. هذا ما قدمه لنا التحليل وهو المرحلة المهمة التي تحتاج إلى علم النفس والمنطق، فكان علينا أن ندفع الشخص إلى حل هذه المشاكل وإنهاء بعض المشروعات والتخلي عن البعض الآخر. ويحتاج ذلك إلى قوة إقناع ولسنا في حاجة إلى شرح القوانين النفسية ولكن المهم هو أن نقضي على المشروع ونقلع كل آثاره من نفس الشخص أو تدفعه إلى إتمام مشروعاته.

وهذه المرحلة الثانية هي مرحلة التركيب النفسي لأننا نجمع بين نية العمل وتصور الفعل وبين تنفيذ الفعل نفسه أو يزيل هذه النية، وهذا التصور للفعل إن كان الفعل غير ممكن التنفيذ لأسباب جسمية أو نفسية أو اجتماعية.

قد يتعلق الشخص بموضوع وتحاول أن يصل إلى كل ما يحققه وتتكون لديه فكرة ثابتة تركز نشاطه حولها وينقطع عن كل الأعمال المختلفة التي تضمن نجاحه في الحياة ويكون الشخص في هذه الحالة شاعراً

بخطئه ولكنه لا يجد قوة تحويل نشاطه عن الاتجاه الذي يتجهه رغم نفسه، وتختلف هذه الحالة عن الأولى لأنها حالة مشعور بها ويكون وجه الغرابة في أن الشخص يقدم على الفعل الثابت بإرادته وفي نفس الوقت يشكو من هذا الفعل ويراه أضعف منه، ففي هذه الحالة لا ينفع التحليل النفسي ونكون أمام مشكلة عويصة هي عكس المشكلة الأولى تقريب إذ ينفذ الشخص فعلا قبل أن يتوقف الوقت الكافي عند تصوره ليستطيع الإعراض عنه والقيام بكف الحركات المؤدية إليه. وتثير هذه المشكلة أهم موضوعات علم النفس فنكون في حاجة إلى دراسة التوازن الانفعالي لدى الشخص، إذ أن اضطرابات الفعل ترجع في أغلب الأحيان إلى الاضطرابات العاطفية والانفعالية.

إن الإقناع المنطق لا ينفع شيئا في مثل هذه الحالات إذ يكون الشخص معرضة لحالات نفسية شبيهة حالات الطفل ونقول مع جلدشتين إنه لا يجوز أن نتكلم عن رجوع إلى حالة الطفولة وأن التحليل النفسي لا يؤدي إلى نتيجة حتى لو كان السبب صدمة انفعالية قديمة وقد ينفع التحليل المعرفة نوع الصدمة إن لم تكن معروفة لدى الشخص ولكن أغلب الصدمات تترك أثرا واضحا في الذاكرة وأثرا واضحا في التوازن النفسي الجسمي، فعلى العالم النفسي أن يعيد هذا التوازن ويزيل آثار الصدمة في النفس وفي الجسم.

### أثر الإيقاع في النشاط النفسي:

في هذه الحالة كان علينا أن نرجع إلى التنويم المغناطيسى وتهبيط النشاط النفسي التدريجي بواسطة الإيقاع والتنفس ليشعر الشخص براحة وهمية قائمة على خفض إيقاع التنفس بالتدريج، إن الصدمة الانفعالية تحدث اضطرابا لأنها ترفع النشاط دفعة واحدة، ولوحظ أن إخراج الطفل من النوم بطريقة مفاجئة قد يحدث آثاراً شبيهة بآثار الصدمة الانفعالية. إننا لا نستطيع أن نتغلب على آثار هذا الاضطراب إلا بإرجاع التوازن. وقد ينشأ الانحراف في السلوك عن فكرة ثابتة، فحسبنا أن نوحي إلى الشخص في حالة الهبوط بالتخلي عن فكرته وتوجيه فكره إلى ناحية أخرى. ويسهل علينا الهبوط النفسي تخفيض الناحية الانفعالية التي تدفع الشخص إلى التشبث والوقوف عند الفكرة المسيطرة؛ فيكون الشخص في حالة سلبية تدفعه إلى التغلب عليه وتساعده على إقناعه بسهولة ليقلع عن كل ما كان متمسكا به من قبل.

وليس الإيحاء بالأمر الضروري لإرجاع التوازن فإن الإيقاع التدريجي وحده قد يكون كافيا، ويظهر ذلك في حالات الصرع الناشيء عن أسباب نفسية. وقد شرحت في كتاب التعب عملية الصرع الذي لم يدرس إلى الآن على أساس فهمنا لتوازن النشاط النفسي؛ فالصرع هبوط سريع تحدث في الغالب بعد حزن وفير أو بعد غضب شديد، وقد أفادت جلسات التنويم في جعل حالات الصرع منخفضة أو تصير نادرة. ويفيدنا التحليل النفسي في حالات الصرع للوصول إلى مبعث الاضطراب حتى نتبين السبب الأول وهل هو جسمي أو نفسي. ولكن التحليل لا يزيل الاضطراب لأنه ككل تحليل على آخر يؤدي مهمة علمية. وأما المهمة العملية في علم النفس

كما هي في كل على فتقوم في الغالب على نشاط إيجابي وعلى بناء كما هو الشأن في التركيب

ويفيدنا التحليل النفسي في حالات الصرع وفي كل حالات الاضطرابات النفسية في رسم طريق التركيب. والتحليل باعتباره وسيلة علمية يزودنا بنظريات تساعدنا على فهم القوانين النفسية ولا تكون لتلك النظريات قيمة علمية إلا إذا فتحت لنا طريق التركيب وإعادة التكوين الطبيعي للنفس والتكامل الضروري لتحقيق التوافق مع البيئة.

### أثر الإيحاء في التركيب النفسي:

ويمكننا أن نفيد من ملاحظة الدكتور هـ. زبندن H. Zbinden فيما يختص بدوار البحر وأثر الإيحاء في القضاء عليه. إن أصل الاضطراب راجع إلى اختلال التوازن في الجسم كله. ويكون الشخص الذي لم يعرف مرض البحر من قبل معرضاً لاضطراب كبير ثم تؤثر العادة فتقلل من الاضطراب وتظهر الصلة واضحة بين اضطراب التوازن واضطراب الوظيفة الهضمية. ولاحظ الدكتور زبندن أن الإيحاء يقضي على مرض البحر كما أنه قادر على إظهاره دون أن يكون له سبب طبيعي، ويحكي عن نفسه أنه كان نائما وينتظر أن تسير الباخرة ليلا، واستيقظ بالليل وسمع أصواتا أكدت له أن الباخرة أخذت في السير فشعر بشيء من الاضطراب في التوازن تبعه قيء وآلام. وكم كانت دهشته بعد ذلك إذ علم أن الأصوات التي سمعها كانت أصوات عمليات الشحن وأن الباخرة كانت لا تزال

واقفة. واستطاع بعد ذلك أن يقضي على مرض البحر بالإيحاء الذاتي كما أوقفه عند الآخرين بالإيحاء (٥٤). نفيد من هذه الملاحظة أن اضطراب التوازن يحدث اضطراباً نفسياً واضطراباً عصبياً وأن الإيحاء قادر على إيقاف هذا الاضطراب كما أن الموسيقى والرقص حسب شهادة زبندن نفسه كان لهما أكبر الأثر في إزالة مرض البحر، فيكون للإيحاء الأثر نفسه الذي يحدثه الإيقاع والموسيقى فكلاهما قادر على إرجاع التكامل النفسي ويكون وسيلة من وسائل التركيب النفسي.

وقد لاحظ العلامة ب. جانيه في كثير من المناسبات خصوصاً في كتابه "الطب النفسي" La Médecine Psychologique أن المرض النفسي هو في أغلب الأحيان اضطراب القوى النفسية إما بالزيادة وإما بالنقص فتارة يبذل الشخص جماً من النشاط ويشعر ما خسر من هذه القوى فيواتيه الضعف ويلازمه التعب في مظاهر مختلفة، وتارة أخرى يكون الشخص سلبياً فلا يبذل أي مجهود ويتجمع لديه قدر من النشاط يحاول الظهور فيمارس الشخص أفعالا لا يريدها ويشعر بنفسه مدفوعاً إليها دفعاً قوياً. وتراه من ناحية أخرى يخشى بعض الأفعال، ويميل إلى الراحة حتى تواتيه موجة من النشاط توجه أفعاله إلى ناحية لم يكن يفكر فيها قط، وكثيراً ما يكون للمجتمع أثر كبير في ظهور الاضطراب فيخضع الشخص لآثار أشخاص آخرين ليعيش تحت سلطتهم ويبذل مجهوداً كبيراً للتكيف ويضحي بمصالحه وحقوقه في سبيل إرضاء الآخرين. ويبذل موفوراً من

---

(٥٤) H. Zbinden : Influence de l'Autosuggestion sur le mal de mer. Archives de Psychologie, T.6. 1907, P. 153.9

نشاطه في صورة توتر أو حذر أو حب أو غيرة، وكثيراً ما تكون هذه الحالات النفسية سببا في اضطراب نفسي جسمي كبير ويصعب تحويل السلوك في نفس البيئة ويتطلب التركيب النفسي عزلة مؤقتة ترجع للشخص توازن قواه النفسية، وذلك لأن الحب والغيرة والحذر والشعور بالاضطهاد تجعل الشخص دائما في حالة توتر وقد تثير بعض المواقف شحنات عاطفية قوية وانفعالات شديدة ويؤدي كل ذلك إلى الشعور بالتعب.

ولاحظ ب. جانبه أن أغلب طرق العلاج النفسي هي طرق الاقتصاد (Eeonomie) لإرجاع التوازن في القوى النفسية ومحاولة إبقاء قدر من النشاط النفسي أو تنميته (٥٥).

ويقتضي التركيب النفسي تمرينات لاكتساب عادات جديدة مفيدة وطرد عادات سيئة قديمة. فكثيرا ما تنشأ العادات السيئة لملء فراغ كان يسيطر على الشخص من هذه العادات بطريقة سلبية فلا بد من خلق اتجاهات جديدة تستهلك قدرا من النشاط للحصول على فوائد تولد في الشخص الشعور بقيمته ويتم ذلك عن طريق التمرين واكتساب عادات جديدة تركب النفس تركيا جديداً. هذه هي الغاية البعيدة لعلم النفس وهي مقدرته على تغيير وضع من الأوضاع النفسية من ناحية السلوك والحالات الشعورية.

---

(٥٥) P. Janet: La Médecine psychologique. Paris, Flammarion, 1924. P. 180

هل يستطيع علم النفس أن يزيد في نشاط شخص ويقوي انتباهه ويزيد في سرعة الاستجابة الفكرية والحركة وينقله بسهولة من حالة خوف إلى حالة اطمئنان ومن حزن إلى فرح؟

إن الحالات المرضية الداخلة في نطاق علم النفس تحتاج إلى معرفة طرق التغيير ولا تكتفي بالوقوف على الحالة الراهنة فكيف يمكننا أن نعطي للنفس تركيبًا جديدًا غير التركيب الذي كانت عليه؟ وقد ظن قوم أن المرض النفسي الحقيقي لا يكون إلا في حالة سلامة الجسم مع وجود حالات من الاضطراب في السلوك والتفكير واعتقد قوم أن الاضطراب النفسي قد يوجد دون أن يكون هناك اضطراب فسيولوجي. وهذه الفكرة مرجحة لأن الاضطراب في صورة فسيولوجية، فيبدأ الاضطراب في صورة شذوذ فكري ثم ينقلب إلى اضطراب حركي، ورجع المرض إلى اضطراب في الوظيفة الفسيولوجية العامة بسبب معظم الإصابات النفسية الناشئة عن الانفعال المفاجئ.

يحدث الانفعال المفاجئ تعبئة سريعة للقوى والنشاط لمواجهة الموقف الجديد وحل المشكلة القائمة، ويتبع ذلك ارتفاع سريع في النشاط النفسي، تاركا أثره في التوازن العام وفي طرق اتجاه النشاط في الأعصاب.

## الإيقاع الشخصي

تثبت الملاحظة أن الشخص المعرض للاضطراب في نشاطه النفسي والمهدد بتفكك في تكامل النفسي يسعى دائما إلى إخضاع إدراكه وحركاته

التأثير الإيقاع مختارة نوعا من الإيقاع بعينه وقد ظهر ذلك أولا بطريقة اختيارية عند العوام إذ وجدنا أغلب الناس يقبلون على رقصات مختلف إيقاعها باختلاف الأشخاص واختلاف المناطق الإقليمية ودرجات الرقي والتقدم في الحضارة. وكثيراً ما تكون هذه الحفلات ذات صبغة دينية كما تعبر عن شعور بالفرح أو الحزن، وفي كلتا الحالتين يصطحب الإيقاع بشحنة وجدانية. وتحاول الطقوس الدينية أن تقضى على حالات الخوف وتساعد رقصات أفراح الزواج على تحمل وطأة السرور الشديد كما أن رقصة الموت وحفلات المأتم تقضي على انفعال الحزن.

ويؤدى الإيقاع مهمتين: يشترك الأشخاص في حركات ظاهرة متحدة فيقضي على الشعور بالعزلة ثم يدخل الشخص في مجموعة من الناس ويرتبط بهم فيشعر براحة كبيرة. وعلى هذا الأساس يمكن تحليل الراحة التي يشعر بها الشخص عند أداء الصلاة الجماعية، ويترك الإيقاع أثره بينا في نفس الشخص لأنه يدخل الحالات الشعورية المتصلة في وحدات متشابهة يستطيع إدراكها وتعرفها فيمكنه تصور الحالة الشعورية الجديدة من أول ظهورها فيندفع إلى المستقبل ويمكن أن يتخلص بذلك من الماضي المؤلم والابتعاد بسرعة عن الحاضر ويمكنه أن يعيش في مستقبل قريب فيخيل إليه أنه يخلق حاضره بنفسه.

ويختلف الأشخاص حسب فهمهم وثقافتهم في ميلهم إلى درجات الإيقاع ويحاول كل منهم أن يتبين الإيقاع المعين الذي يلائم مزاجه. ونلاحظ عند كل شخص سرعة معينة تظهر بها أفعاله المختلفة فترى بعضا

يسرعون في الكلام والمشي وفي كل عمل يقومون به كما أنهم يسرعون في التفكير والانتقال من حالة انفعالية إلى أخرى، وهناك أشخاص يمتازون بالبطء في كل مظاهر نشاطهم، وقد تأيدت هذه الفكرة الاختيارية بنتائج تجريبية: كان طلاب قسم الفلسفة بكلية الآداب مقبلين على قياس التعب بطريقة الإرجوجراف تحسب منهج موسو وبوتيكو واتفق أن كان المترونوم (جهاز الإيقاع) مشغولا في حجرة ثانية وخطر ببالنا أن نترك الشخص يسحب النقل دون أن يخضع لإيقاع خارجي مجدده المترونوم ودهشت إذ رأيت الشخص المجرب عليه يعطينا منحنى مكوناً من خطوط متساوية ومسافات متقاربة مرتبة تبعاً لإيقاع معين. وعندما أجريت التجربة على نفسي وعلى عدد كبير من الطلاب والطالبات ورجال الكلية من موظفين وأساتذة تيقنت في نهاية الأمر أن الشخص السوى يدخل عمله في إيقاع خاص به. ويحاول المريض ذلك أيضا ولكن الأشخاص المعرضين لتيارات انفعالية يتغير الإيقاع لديهم في الجلسة الواحدة ويختلف بين يوم ويوم ويصعب الوقوف على إيقاع خاص بهم.

وصادفتني صعوبات عديدة في الوصول إلى تعيين الإيقاع الشخصي عند بعض الأفراد لسهولة تأثر بعوامل فسيولوجية حشوية، ولذلك كنت مضطرا إلى أن أعيد التجارب في أوقات مختلفة قبل الأكل وبعده، وظهر تأثير العمليات الهضمية في الأعصاب بواسطة الإرجوجراف واتضح بطء الإيقاع وهبوطه بعد الأكل مباشرة ويصير الإيقاع منتظما بعد النوم مباشرة.

وقد عرض جاستون باشلار [٥٦] كل ما يتصل بآثار الإيقاع ومظاهره في مختلف ميادين الطبيعة وخصص في آخر الكتاب فصلا لتحليل الإيقاع والفكرة مستمدة من العالم الإسباني بنيرو دي سنطوس Pinhero dos Santos وقد أوضح كثيراً من الأفكار التي وجهنا إليها بعض التجارب العلمية. ولا شك أن موقف بنيرو كان نظريا ثم نزل من التفكير النظري إلى الاتجاه العملي والتطبيق ووازى باشلار بين أثر الإيقاع وأثر التحليل النفسي ولكنه وإن كان صرح بنقص التحليل النفسي فإنه لم يوضح تماما عمل الإيقاع وطرق تأثيره كما ظهر لنا من تجاربنا في التنويم المغناطيسي.

### أثر الإبقاء في الصرع

وما وقفت عليه اتفاقا في تجاربي يجمع بين رأى ب. جانيه في تقطع الفعل في سلوك المصابين بداء العصاب وخصوصاً المصابين بداء الصرع، وبين رأي بنيرو في اقتراحه إخضاع السلوك للإيقاع العام. ويقول ب. جانيه إن الفعل المتقطع الذي يحدث في النوبات الصرعية يظهر فجأة ولا يشعر به المريض وليس له بداية معروفة ولا يدرك له منتهى [٥٧].

ولكن دراستنا للنشاط النفسي توضح لنا إلى حد ما هذه الظاهرة الغريبة؛ فالنوبة الصرعية هبوط مفاجئ لدرجة النشاط النفسي يتدرج منذ النوم مسبوقاً بحالة السأم أو التعب، وقد يحدث السأم بتعطل الحواس

---

(٥٦) Gaston Bachelard La Dialéctique de la Durée. P 152 Paris Boivin 1936

(٥٧) نفس المرجع السابق.

وقطع الصلة بالخارج كالبقاء في مكان يخيم عليه السكون والظلام. وقد تحدث التعب الموضعي بالتحديق البصرى فنقرأ قبل النوم لنتعب المقلة ولنخفض الجفون ونشعر بما يشبه حالة النوم ويمكن اجتلاب النوم بتعميق التنفس مع إرخاء الجسم أعر إرخاء، ويمكن لاجتلاب الارتخاء كذلك بالإيحاء الخارجي أو الإيحاء الذاتي. وأعتقد أن النجاح الذي وافاني في إنقاص النوبات العصبية بإخضاع المريض للإيقاع هو في الحقيقة تعويد النشاط النفسي النزول تدريجا. ولا يجوز لنا أن نتعجب من آثار النزول الفجائي لأننا نعلم آثار الارتفاع الفجائي في الانفعال الطارئ، لقد عاد التوازن الانفعالي بتغيير الإيقاع تدريجا وتركت الانفعالات الفجائية آثاراً في شكل اضطراب اللغة والسلوك. وكثيراً أيضاً ما يظهر الاضطراب فجأة فيقف الشخص عن الكلام مدة لينفجر بعد ذلك دون سابق شعور ولا عن إرادة.

وأعرض حالة اثنين أورثهما الانفعال المفاجئ تأتأة وفي بعض الأحيان توقفا عن الحركة فالأول (ج. ع. ) طفل كان نائمة وتصور في الحلم كلباً كان يراه الطفل دائما بجوار المنزل فانزعج الطفل وهو نائم واستيقظ على أثر ذلك الانزعاج ولازمته التأتأة منذ ذلك الحين، وبجانب ذلك لوحظ عليه ميل إلى الدعة والراحة وعزوف عن الحركة. فلما كبر وتذوق الجمال اشتد شغفه بالموسيقى ودفعه ولعه بها إلى تأليف قطع جديدة ولاحظ على نفسه أن التأتأة قلت بكثير عما كانت عليه من قبل. وكذلك لوحظ على طفل سمع صراخ أهله وهو نائم في ليلة فقدت عائلته أحد أعضائها وأحدث هذا الانزعاج اضطراباً في السلوك وخلف اضطراباً في الذهن ظهر

في صورة هذيان وعندما أخضع هذا الطفل للإيقاع فإنه انتظم في كثير من مظاهر نشاطه.

إننا نستطيع أن نقول بتنظيم النشاط النفسي على أساس الإيقاع سواء كان تأثيره في الأعصاب عن طريق الإدراك أو عن طريق الفعل وكل هذه الحالات التي يظهر فيها اضطراب الفعل في شكل نقطة اللغة أو توقف الحركة أو اضطراب الاتزان ترجع إلى انحلال الشخصية. وقد أشار ريبو إلى أساس هذا الانحلال وأسبابه(٥٨). وحاول كرسيوس أن يثبت أن اضطراب الحواس لا يمس الشخصية ولكننا إذا طبقنا هذا الكلام على الواقع المشاهد وجدناه قاصراً إذ قد يوجد نقص في الحواس مع سلامة الشخصية إذا عرف الشخص كيف يعوض النقص الموجود في حاسة باستخدام حاسة أخرى. ولكن المنتظر أن أي خلل في الوظائف الفسيولوجية يكون له صدى في التكوين العام للشخصية ويكتسب المريض شخصية جديدة ذات تركيب مرتجل يكونه الشخص بسرعة تحت تأثير التغييرات البيولوجية والاجتماعية ويكون الأساس البارز للشخصية المرتجلة تعويضاً فائقاً لوظيفة من الوظائف. ويستغرب الناس دائما من احتمال الشخص الإسراف في القيام بهذه الوظيفة دون أي شعور بالتعب.

نرى الشخص الذي حرم من لذة حيوية يسرف في الحديث عنها ويسرف في تصويرها ويبذل نشاطا كبيرا في تحقيقها بطريقة وهمية فيكون

---

(٥٨) Recherches psychothérapiques sur les délires N. T. Koressios. Paris 1943, P.21-22

هذا السلوك غريباً بالنسبة للشخص الذي عرف هذه اللذة وزهد فيها. وكثيراً ما يحدث فقد الشيء أو الحرمان من عادة قديمة هبوطاً وحزناً وضعفاً في الإرادة وتظهر على الشخص أعراض الملانخوليا. ففي هذه الحالة يجب البحث عن الطريقة التي تبعد الفكرة الثابتة التي تحوم حول الخسارة والفقدان.

وحدث أن كانت سيدة تسير في الطريق مع ابنتها ولم تشعر إلا ووجدت ابنتها ميتة تحت عجلة سيارة فتكون عندها على أثر ذلك حزن وهبوط مع سيطرة القلق. وبعد ذلك صارت تخشى سماع قطرات الماء كما أنها تخشى رؤية أي بقعة على الحائط أو على الأرض، وهذا الاضطراب في الشعور وفي الحركة عم السلوك وأحدث هبوطاً عاماً في النشاط النفسي وانحلالا في الشخصية. فلا شك أن تنظيم النشاط النفسي عن طريق تنظيم التوازن العصبي بالإيقاع يذهب آثار الصدمة الانفعالية، خصوصاً وقد فشلت كل المحاولات الكيميائية عن طريق الحقن والشرب.

### الإيقاع والتكامل النفسي

ولا ننسى أن الإنسانية اكتشفت أثر الإيقاع وتنظيم المزاج عن طريق التنفس النظر في أنواع مختلفة من الإيقاع، وظهر ذلك جيدا في عمليات الذكر التي تحتم على الأشخاص المجتمعين في حلقة واحدة أن يتنفسوا حسب إيقاع معين، وأن يغيروا سرعة الإيقاع من حين إلى آخر، وبذلك يمكننا أن نرى في الإيقاع عاملا أساسيا للتكامل فبالإيقاع يتم الربط بين

العمليات البيولوجية والعمليات النفسية.

ولا شك في أنه توجد أسس نفسية متينة للتكامل الاجتماعي وليست اللغة التي تعتبر أهم ركن من أركان التكامل النفسي الاجتماعي إلا إيقاعاً نفسياً جسمياً ويمكن تخيل مزاج الشخص من حركاته كما يمكننا أن نتخيله من لغته، وقد أشرت إلى اضطراب اللغة في صورة تأتأة تبعاً لاضطراب في النشاط النفسي كما أن حالة الهبوط العام تكون مصحوبة ببطء من جهة أخرى. وتقسم اللغة المعنى الكلي لتجمعه وتضمن وحدة تحاول الدنو من الوحدة الطبيعية. وعرفت شاباً (ع .ح) كان يقف في أثناء حديثه ويفقد كل قدرة على التعبير ويشعر المستمع إليه بحرج إذ يتخيل حرج الشخص المتكلم وكانت طريقة الإصلاح إيجاد (ع ح) في مناقشات مجتمع محدود أحدثت عنده تغييراً في إيقاعه الشخصي عن طريق التأثير الاجتماعي. فالشخص الذي يفكر منعزلا يكون إيقاعه أبطأ من إيقاع الشخص الذي يعيش في مجتمع فالشخص الوحيد لا يحتاج إلى استعمال الألفاظ ويبقي تفكيره متصلا وتكون وحداته كبيرة ولذلك يعجز الشخص عن مسايرة هدا الاتصال ويفقد المعنى بعد ذلك ولا يجد التفكير الألفاظ المعبرة فيسكت.

إن الحقيقة النفسية متصلة في حالات الانفعال ولكنها مجزأة في حالة التفكير إن الألفاظ الدالة على الحالات الانفعالية تقريبية عندما نقول: الخشية أو الخوف أو الرعب أو الفزع نشير إلى درجات مختلفة من انفعال يظهره موقف معين يتجلى في شعور أو سلوك ولا يصور الحقيقة النفسية

إلا بالقدر الذي يصور اسم اللون جزءا من الطيف. ولكن الاتصال بين الحالات النفسية موجود والتمييز بين الحالات قائم على اعتبارات نفسية مختلفة باختلاف نمو الشخص وبحسب بيئته الاجتماعية وصلته بهذه البيئة.

ويعتبر الشخص مريضاً عندما يلاحظ عليه انفكاك وتقطع في الحالات الانفعالية، كأن ينتقل من الحزن إلى الفرح بصورة نائية، يضحك الشخص لينقلب من ضحكه في الحين نفسه إلى بكاء كما أن الشخص الذي يظل تحت تأثير انفعال واحد مدة طويلة دون أن يحصل أي تحول، فلا يعتبر معتلا؛ فالشخص الحزين بدرجة واحدة مدة أشهر متتالية لا يعتبر سويا، وقد تؤثر هذه الحالة من الثبات الانفعالي على التفكير فتتكون الفكرة الثابتة التي تظهر في صور مختلفة. إننا بعد الوقوف على الإيقاع الطبيعي للإنسان يمكننا أن نحدث تغييرا في كل سلوك الشخص عن طريق الإيقاع، وتربط اللغة بين الفعل الجسمي وبين الفعل الذهني. وإذا تأملنا عملية النطق وجدناها تقسيماً للمعنى الكلي وإدخاله في قوالب مميزة من جهة ومرتبطة بالإيقاع الذي يركب ولا يحلل لأنه يرجع الترابط الضروري بين الجسم والنفس والمجتمع ويصل الشخص بالوسط ويجعله قادرا على التكيف مع الخارج.

وليست الأزمات النفسية إلا انفصالا بين الشخص والبيئة، وبعد أن كان الفعل موجها اتجاه طبيعية ينقلب السلوك إلى تردد، والوقوف الطويل عند التردد والشك والبحث عن اتجاه الفعل هو انفصال بين التصميم والفعل، وأوضح لنا موريس رفلين في كتابه محاولة حل أوعر مشكلة: الفعل

والمنطق أساس التردد في الإنسان وأصله في الإنسان وكيف ينشأ عن الصدفة أو بطريق العمليات الطبيعية التداخل الميول في وظائفها الداخلية والخارجية. (٥٩)

وتوجد، نتيجة لذلك أفعال وشبه أفعال يعتقد الشخص أنه يقوم بها بإرادته ولكنه يكون في الحقيقة موجها بالصدفة ويكون التردد مسيطرا عليه في كل شيء. إن هذه الحالة تمثل بوضوح انحلال الشخصية ولا يكون العلاج إلا بالرجوع إلى التركيب النفسي، والطريق المضمون لذلك هو الإيقاع فبه نستطيع أن نعيد للنشاط النفسي حركته الطبيعية التي تضمن شعوراً سوياً وفعلاً إرادياً ناجحاً.

---

(٥٩) Maurice Riveline : Essai sur le probleme le plus général : Action et logique. P. 213. Paris, P. U- F.



# المراجع


1- ABRAHAM. (K)

Contribution to a Discussion on Tic (Selected Papers) 2- Ach

Archives de psychologie 5-286  24 - 289

3- Adler Praxis

4- Allen (Frank) Learning and relearning

British journal of psychology 1936 - 37 p. 218

Antipoff (Helene)

Assunçao (Zilda) contribution typologique à l'étude de l'ergographe 37 – 38 p. 146

Arnold Oesell-The First Five years of life.

Badarey. Sur la Nature des images Revue philosophique 50 p. 89

Bartlet (F.C.) Psychology and Primitive Culture Baumgarten (Franziska) Les examens d'aptitude professionnelle

Bently Madison The Field of psychology

Burloud (Alport)

La pensée d'aprés les recherches expérimentales de H.J. Watt de Messer et de Bühler.

Bergson (H.) Données immédiates de la conscience (1936) Black bury. (I. M.)

Critical Notice. British journal of psychology 1935 – 36. Blondel (Ch.) Volitions T. VI. G. Dumas.

Bourdon. (B.) la pérception des mouvements de nos membres. Atineé psychologique. XVIII p 33 - 36.

Burrow. The biology of human conflict.

Burt.. (C) Factors of the Mind

University of London Press.

The logical status of Mental Factors.

Character and Personnality

So - called "reaction in characterology and psychiatry P. 40 vol. 3 1934 - 35

Chin (R) Ph. D.

An analysis of Conformity Behavior

New-York 1934.

Claparéde (Ed) 1) L'éducation Fonctionnelle 1931

2) Définition de la volonté Archives de psychologie V. 20 p. 252

Cox John. w.)

1) Manual Skill its organisations and developmeni.

2) Mechanichal aptitude its existence nature and measuremet Delmas (Achille)

Psychologie pathologique du suicide

Dewey Human Nature and conduct

Dubois (P. M. Paul) conception psychologique de

l'origine des psycho pathes. Tome 10. 1910 - 11

Revue de Métaphysique et de Morale. Dumas (G). Nouveau Traité de psychologie

T. 3 P. 1 – 35 les associations sensiae - Motrices Livre 1 l'équilibre et L'orientation

Dupuis (Léon) Les aboulies sociales, le Scrupule, la Timidite la sus ceptibilite. L'autoritarisme

Dwelshawvers Traité de psychologie.

L'Exercice de la Volonte Puyot. Paris

Fauconnet: La Responsabilité. Etude de Sociologie

Filliozat: (J.) La force organique la force cosmique dans la philosophie médicale de l'Inde et dans le Veda

Garnett The mind in action

Gemelly : observation sur la sélection des pilotes aviateurs. Le travail humain 1 p 16

Gennoult (M) - La philosophie d'Arnold Guehlen Revue de Métaphysique et de Morale 1936

Guillaume et Meyerson

Recherches sur l'usage de l'instrument chez les singes. Journal de psychologie 1930.

Groos (K) le Jeu

Heymans la psychologie des femmes

Hostelet (G) Position du probléme de l'action

Intolavski Volonté et liberté

Ivanolf

Recherches expérimentales sor le dessin des Ecoliers de la Suisse Romande.

Janet (Pierre)

L'automotatisme psychologique.

De l'angoisse à l'extase.

Les débuts de l'intelligence.

L'intelligence avant le langage.

Les médications psychologiques

Névroses el idées fixes

La tension psychologique et ses ocillations G. Dumas tome 4. ch 11

Les obscessions et la psychastenie.

James (W) Li théorie de L' émotion

Joss Der Will

Klüm (1) Behavior mechanisms Monkeys

Koiska (K.) Principles of Gestalt Psychology Action ch. VIII Köhler

Les Forces motrices du comportement. Journal de psychologie 1930

Landry (L.) : L' action par la volonté et la connaissance. Rev.

Philol. 1933

Langfeld (Herbert Sidney)

Conflict and adjustment in art

Problems of personality.

Lavelle (L) : Etre et acte

Revue de métaphysique et de Morale P. 183: Lefevre (L. J.) :

Habitudes et habitus. Revue de philosophie 1928 Leroux (E) La Nature de l'experience d'après

J. Ward. Revue philosophique 50 années. Lévy

De l'auto-suggestion à l' education

Archives de psychologie Tome 22

Lowe (M. F.)

The application of balance to the study of the bodily changes occuring during periods of volitional activity British Journal of psychology 1935 – 36 P. 245

Lubac (Emile) les Niveaux de conscience et d' inconscient et leurs intercommunications

Machurdy The psychology of Emotion Morbid and Normal. Maquart F. X

De L' action de l'intellect 1937

Merlevedo (D)

Contribution à l'etude du transfert de leliet de l'excrcice moteur. Molle (Germaine Van) Conscience et acte pur : Revue de L'universite do Bruxelles. 40 années 1834 – 45 Montpellier (G.)

Reactions conditionnées Volontaires et involontaires

Montpelier (G. de)

Note sur l'acceleration dans les nouvements volontaires de la Main 1937 - 33

Moors (D. T. V.) Dynamic Psychology

Mourad (Y.) L'eveil de l'intelligence

Murphy (G.) An Historic of Modern psychology

Nadel (Aaron B.)

A qualititive analysis of Behavior following cerebral lesions Diagnosed as primarilly affecting the frontal lobes Ogden

The meaning of Psychology.

Parodi (D.) Les bases psychologiques d'une morale
Payot (J-) Le travail intellectuel et la Volonté 1930

Paulhan (Fr.) L' activité mentale et les elements de l'esprit (1913)

Petters (W.) and A. A. Wenborne

The time pattern of Voluntary movements

Britisch journal of psychology P. 388 1935 - 36

Philip (Howard. L.)

An Exprimental Study of the: Frustration of Will acts and conation The Britisch journal of Psychology XXI

Pieron (H.)

L'habitude et la Mémoire dans G. Dumas N. Traité de psychologie Rcinor Freiheit - Wollen und Aktivitäte

Archives de psychologie Tome 22. P. 375

Revault d' Allonnes Comment l'action schemalise Revue philosphipue 1930. P 211

Rey (Andie) L'inteiligence pratique chez l'enfant.

Rey (A.) Lambercier

Contribution á l'étude de l' intelligence pratique

Chez lenfant Archives de psychologie 1935 - 36

Robaon : Le sons de la responsabilite dans la vie sociale Said (N. M.)

The specific Nature of color and Form Mémories An Experimental lavestigation 1929

Saussure (Rene de) Le temps en général et le temps bergsonien en particulier P. 14 - 1914 Archives de psychologic

Savoureux (Le.)

Recherches sur 1 Nature de l'acte

Revue philosophique 1930

Sergi Les illusions des psychologues. Archives de psychologie 4-206

Spaier (A.) La penssée concrete essai sur le symbolisme intellectuel Paris 1927

Sparrow (W. J.)

An Enquiry into the variation of precission of movement with age during adolescence.

Britisch journal of psychology 1935 - 36 P. 441

Sully (J) A text book of Psychology. The human

mind V. II action Conduct.

Tolman (F.) Tegen Modern Willen Theories Archives 22 - 196 The acquisition of String - Pulling By Rais - conditoned Response and Sign - Gestalt.

Tonrneau (Le. Ch.) La psychologie ethnique

Trolaod (Leonard T.)

The principles of psycho – physiology.

Viteles (Morris) Industriel Psychology B. U.

Wellon (H.) la psychologie appliquée Revue philosophique 1930 P. 97

Wather. (L.) Etude Techinopsychologique d'une industrie de produits alimentaires. Archives de psychologie

Ward Psychological principels chap. XI.

Wyatt

Intelligence and will

Yung (E.) Contribution a l' étude de la Suggestion a l'état de Veille 1909 Tome Si

# الفهرس

الباب الثالث

أثر المجتمع في الفعل الإرادي

الباب الرابع

أثر المرض في الفعل الإرادي